بعثات بارفيري أوسبنيسكي وأثرها في دعم الوجود الروسي في بلاد الشام (١٨٤٣-١٨٦٠م)

د. أميرة السعيد الطنطاوي محمد *

المستخلص

أبدت روسيا اهتماما واضحا ببلاد الشام منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وحرصت على دعم وجودها في هذه المناطق من خلال إظهار اهتمامها بالأرثوذكس وتحسين أوضاعهم، ورعاية كنائسهم، ولاسيما وأن سياسة الكنيسة الروسية خلال القرن التاسع عشر شكلت جزءا من الدبلوماسية العامة لسان بطرسبرج التي هدفت إلى تعزيز المصالح السياسية الروسية في المشرق العربي؛ ولهذا أرسلت منذ عام ١٨٣٨م بعض أعضاء المجمع الروسي المقدس إلى بلاد الشام فقدموا توصياتهم بضرورة حماية روسيا للأماكن المقدسة الأرثوذكسية في فلسطين، وإرسال بعثة دينية إلى بلاد الشام للوقوف على أحوال الأرثوذكس فيها، فكانت بعثات بارفيري أوسبنيسكي استجابة لتلك التوصيات.

اختارت الخارجية الروسية والمجمع الروسي المقدس بارفيري أوسبنيسكي في نوفمبر ١٨٤٢م للسفر إلى بلاد الشام لثقافته الواسعة، واهتمامه بشئون الشرق الأدنى والمسيحيين الأرثوذكس فيه، وقد أخبرته الخارجية الروسية بسرية مهمته، وحددت له بشكل دقيق ومفصل المهام المكلف بأدائها، وخلال فترة بعثته الأولى (١٨٤٣-١٨٤٤م) حرص بارفيري على زيارة المدن والقرى الشامية المختلفة، ومقابلة سكانها ورجال الدين فيها، وتفقد أحوال الكنائس وأديرة الصحراء؛ فقدم للحكومة الروسية في تقاريره معلومات مفصلة نابعة عن معايشة حقيقية للوضع في بلاد الشام، وهو الأمر الذي قدرته الخارجية الروسية فأرسلته للمرة الثانية إلى بلاد الشام عام ١٨٤٧م واستمر فيها حتى عام ١٨٥٤م وخلال هذه الفترة حرص بارفيري على تقديم يد العون والمساعدة للمسيحيين الأرثوذكس ولا سيما العرب، والوقوف في وجه التبشير البروتستانتي والكاثوليكي، والاهتمام بالنواحي التعليمية، ولكن بسبب نشوب حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) عاد بارفيري إلى روسيا، وقد شكلت آرائه وملاحظاته عن الوضع في بلاد الشام أساسا ركيزا عند تخطيط الخارجية الروسية لإرسال بعثة دينية علنية تعيد النفوذ الروسي المفقود داخل الدولة العثمانية بعد هزيمة القرم، وترسي دعائم الوجود الروسي في بلاد الشام خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الكلمات المفتاحية: بارفيري أوسبنيسكي، بلاد الشام، الوجود الروسي.

Barvery Uspinski missions and their impact on supporting the Russian presence In the Levant (1843-1860)

Dr. Amira Elsaid Eltantawy Mohamed

Abstract

Since the 1830s, Russia showed a clear interest in the Levant, and it was keen to support its presence in these areas by showing interest in improving the conditions of Orthodox, and in taking care of their churches; especially that the Russian Church' policy was a part of St. Petersburg's diplomacy to promote Russian political influence in the Arab East. Hence, in 1838, Russia sent some members of the Holy Russian Synod to the Levant to suggest that Russia should protect the Orthodox holy sites in Palestine, and send a religious mission to the Levant to investigate the conditions of the Orthodox there, so the missions of Barvery Uspinski were the response to these suggestions.

In November 1842, The Russian Foreign Ministry and the Holy Russian Synod chose Barvery Uspinski to travel to the Levant. They chose him because he was knowledgeable, and he had an interest in the affairs of the Near East and its Orthodox Christians. The Russian Foreign Ministry informed him of the secrecy of his mission, and specified the required tasks in great details. During the period of

◆ أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد كلية التربية- جامعة الإسكندرية.

his first mission (1843-1844), Uspinski was keen to visit various Levantine cities and villages, meet their residents and clerics, and inspect the conditions of the churches and monasteries of the desert. In his reports, he provided the Russian government with detailed information stemming from a real experience of the situation in the Levant. The Russian Foreign Ministry appreciated his reports that it decided to send him for the second time to the Levant in 1847 and he stayed there until 1854. During this period, Uspinski was keen to provide a helping hand to Orthodox Christians, especially Arabs, and to stand in the way of Protestant and Catholic evangelization, while pay attention to educational aspects. However, Uspinski had to return to Russia because of the outbreak of the Crimean War (1853-1856). His views and observations about the situation in the Levant formed a basis for the planning of the Russian Foreign Ministry to send a public religious mission in order to restore the lost Russian influence in the Ottoman Empire after the defeat of Crimea, and to lay the foundations of the Russian presence in the Levant during the second half of the nineteenth century.

Key words: Barvery Uspinski, the Levant, the Russian Presence.

مقدمة

دخلت المسيحية روسيا في عهد فلاديمير الأول Vladimir I (٩٦٠-١٠١٥) أمير كييف Kiev عام ٩٨٨م، ومنذ تحول الروس من الوثنية إلى المسيحية الأرثوذكسية التي وصلتها من شرق أوروبا؛ حيث هيمنت الإمبراطورية البيزنطية حدث ترابط بين الكنيسة والدولة الروسية الناشئة، وساهمت الديانة الجديدة بدور توحيدي في بدايات تشكل الدولة، وقد أثر سقوط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في أيدي العثمانيين عام ١٤٥٣م على دور الكنيسة ومكانتها في روسيا، حيث أدعت الأخيرة أنها المدافعة الوحيدة عن العقيدة الأرثوذكسية، مما أثر على توجه روسيا السياسي والديني؛ فمنذ عهد إيفان الرابع Ivan IV (١٥٤٧-١٥٨٤م) حاولت روسيا الاتصال بالكنائس الشرقية، كما حرص القياصرة الروس منذ عهد القيصر فيودور ألكسيفيتش Feodor Alekseevich (١٦٦١-١٦٨٢م) على إرغام الدولة العثمانية بالاعتراف بأحقية الرهبان والمسيحيين الأرثوذكس الروس في السفر إلى "الأماكن المقدسة" دون التعرض لأي إساءة أو اضطهاد، وأن تقدم لهم المساعدات اللازمة خلال رحلتهم، بيد أن الاهتمام الروسي ببلاد الشام حتى بداية القرن التاسع عشر لم يتجاوز هذا الحد، لكن ثمة عوامل ظهرت تباعا خلال العقود الثلاثة الأولى من ذلك القرن لفتت أنظار الساسة الروس إلى ضرورة دعم الوجود الروسي في بلاد الشام، فجاء إرسال بعثات بارفيري أوسبنيسكي Barvery Uspinski (١٨٠٤- ١٨٨٥م) إليها استجابة لتلك التطورات.

• أهداف البحث وتساؤلاته

يهدف البحث إلى دراسة بعثات بارفيري أوسبنيسكي وبيان أثرها في دعم الوجود الروسي في بلاد الشام في الفترة من ١٨٤٣-١٨٦٠م وذلك من خلال طرح مجموعة من التساؤلات وهي على النحو التالي:

١. من هو بارفيري أوسبنيسكي ولماذا اختارته الحكومة الروسية ليكون باكورة مبعوثيها إلى بلاد الشام؟

٢. ما هي الدوافع التي حركت روسيا وراء تكليف بارفيري أوسبنيسكي بمهمة حماية الأرثوذكس ببلاد الشام في تلك الفترة؟

٣. ما هي الأهداف التي سعت روسيا إلى تحقيقها من خلال إرسال بعثات بارفيري أوسبنيسكي؟

٤. لماذا انصب اهتمام بارفيري أوسبنيسكي على التبشير الديني ونشره ببلاد الشام تحديدا؟

٥. هل اتفقت أهداف روسيا مع فكر بارفيري أوسبنيسكي عند تنفيذ مهمته أم لا؟

٦. ما هي الجهود التي بذلها بارفيري أوسبنيسكي في تنفيذ مهمته؟

٧. هل صادف بارفيري أوسبنيسكي مشكلات في أثناء تأدية مهمته سواء من الكاثوليك أو من الدولة العثمانية صاحبة السيطرة على بلاد الشام؟

- **محاور البحث**

ينقسم البحث موضوع الدراسة إلى خمسة محاور رئيسة، حيث يشتمل المحور الأول على التعريف بشخصية بارفيري أوسبنيسكي، والدوافع التي جعلت الحكومة الروسية ترسله متنكرا في صورة حاج إلى بلاد الشام وحرصها على إطفاء طابع السرية على المهمة التي وكلته إياها، أما المحور الثاني فأشرت فيه إلى بعثة بارفيري أوسبنيسكي الأولى إلى بلاد الشام (١٨٤٣-١٨٤٤م)، وتنقله بين المدن الشامية لمدة شهرين كاملين، ثم زيارته للقدس، وإقامته فيها التي امتدت نحو ثمانية أشهر، ونقله صورة حية عن وضع الأرثوذكس والجماعات المسيحية الأخرى في الأماكن التي قام بزيارتها في تقاريره التي أرسلها إلى الخارجية الروسية والمجمع الروسي المقدس Holy Synod ، وتناول المحور الثالث بعثة بارفيري أوسبنيسكي الثانية إلى بلاد الشام، وتأسيس البعثة الروحية الأولى في القدس (١٨٤٧-١٨٥٤م)، والآثار التي ترتبت على عمل البعثة ولاسيما في الناحية التعليمية، وتناول المحور الرابع تداعيات زيارة بارفيري أوسبنيسكي الثالثة والأخيرة إلى القدس عام ١٨٦٠م، والآثار المترتبة عليها، ثم جاء المحور الخامس والأخير ليوضح المرتكزات التي اعتمد عليها أوسبنيسكي لدعم الوجود الروسي في بلاد الشام.

- **الدراسات السابقة**

أوردت بعض الكتابات العربية إشارات بشأن إرسال بارفيري أوسبنيسكي إلى بلاد الشام، يأتي في مقدمتها ما أوضحته خيرية قاسمية، في بحثها المعنون بـ "روسيا القيصرية والمشرق العربي"[١] بشأن دوافع إرسال روسيا لبارفيري أوسبنيسكي إلى بلاد الشام، وما ذكره محمد حبيب صالح في بحثه: "البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية وفلسطين) ١٨٤٠-١٩١٤م" عن بارفيري أوسبنيسكي في معرض حديثه عن البدايات الأولى لنشاط البعثات التبشيرية الروسية في جنوب بلاد الشام[٢]، كما أورد مشعل مفرح ظاهر الشمري في بحثه "حركة التبشير الروسية الأرثوذكسية في القدس" ذكرا لبعثات أوسبنيسكي إلى القدس[٣]، كما أشارت نهاد عبد الباسط إلى إرسال الحكومة الروسية له إلى مصر وبلاد الشام في رسالتها للماجستير المعنوَنة بـ "مصر والشام في كتابات الرحالة والقناصل الروس في القرن التاسع عشر"[٤].

أما عن الكتابات الأجنبية فيأتي في مقدمتها كتاب دريك هوبوود Derek Hopwood المعنون بـ" The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914 Church and Politics in the Near East"[٥] الذي رصد فيه مظاهر اهتمام الحكومة الروسية ببلاد الشام، وملابسات إرسال بارفيري أوسبنيسكي إليها، بالإضافة إلى الورقة البحثية التي نشرتها لورا جيرد Lora Gerd ويان بوتين Yane Potin تحت عنوان: "Foreign Affairs through Private Papers: Bishop Porfirii Uspenskii and His Jerusalem Archives, 1842–1860"[٦]، وقد ركزا على عرض أوراق أوسبنيسكي الخاصة التي توثق فترة وجوده في القدس، والمحفوظة ضمن مجموعات أكاديمية العلوم بسان بطرسبرج Academy of Sciences of St. Petersburg، وعلى

الرغم من تركيز البحث على عرض محتويات أوراق أوسبنيسكي من الناحية الأرشيفية حيث فصل عدد الملفات التي اشتملت عليها هذه الوحدة الأرشيفية، ووضح أراقمها وأعداد الرسائل والخطابات في كل ملف، إلا أنه قدم معلومات قيمة مستخلصة من هذه الوثائق بشأن مهمة أوسبنيسكي في القدس أفادت البحث بشكل كبير.

- **مصادر البحث**

اعتمد البحث في المقام الأول على مذكرات بارفيري أوسبنيسكي التي حازتها بعد وفاته في ١٩ من إبريل ١٨٨٥م -بناء على وصيته- الأكاديمية الإمبراطورية للعلوم بسان بطرسبرج ونشرتها في ثمان مجلدات باللغة الروسية خلال الفترة من عام ١٨٩٤م حتى ١٩٠١م تحت عنوان: "كتاب وجودي يوميات وملاحظات على السيرة الذاتية" Книга бытия моего Дневники и автобиографические записки، وقد أعادت منظمة أرشيف الإنترنت Internet Archive غير الربحية نشر هذه المذكرات في ديسمبر ٢٠١٠م وهي النسخ التي اعتمدت عليها في إتمام موضوع البحث، بالإضافة إلى الوثائق والمراسلات الرسمية المتعلقة بنشاط بارفيري أوسبنيسكي في بلاد الشام التي نشرها المؤرخ الروسي بافل بيزوبرازوف Pavel Bezobrazov (١٨٥٩-١٩١٨) عام ١٩١٠م في مجلدين بعنوان: "مواد السيرة الذاتية للمطران بارفيري أوسبنيسكي"، هذا إلى جانب بعض المصادر الروسية المعاصرة لفترة الدراسة التي بينت طبيعة الاهتمام الروسي ببلاد الشام، ومنها: كتاب بوريس منصوروف Boris Mansurov (١٨٢٨-١٩١٠م) المنشور باللغة الروسية في عام ١٨٥٨م بعنوان "الحجاج الأرثوذكس في فلسطين" Православные поклонники в Палестине، وقد قمت بترجمة هذه المصادر من اللغة الروسية، كما استعنت ببعض وثائق دار الوثائق القومية بالقاهرة ولاسيما وثائق الشام، وملخصات دفاتر عابدين.

أولا: التعريف بشخصية بارفيري أوسبنيسكي ودوافع إرساله إلى بلاد الشام

هو قنسطنطين ألكسندروفيتش أوسبنيسكي Konstantin Alexandrovich Uspinski ولد عام ١٨٠٤م في بلدة كوستروما[٧] Kostroma لعائلة ذات أصول كنسية، فهو ابن مرتل المزامير الكنسية ألكسندر ماتفييفيتش أوسبنيسكي Alexander Matveyevich Uspinski وزوجته داريا ستيبانوفنا Daria Stepanovna، وبعد أن أتم تعليمه الابتدائي (١٨١٣-١٨١٨م) ألتحق بمعهد كوستروما اللاهوتي Kostroma Theological Seminary وبمجرد تخرجه عام ١٨٢٤م عين مدرسا في مدرسة ماكاريفسكي Makaryevsky اللاهوتية، وفي العام التالي قرر مواصلة تعليمه العالي فالتحق بأكاديمية سان بطرسبرج اللاهوتية St. Petersburg Theological Academy، التي تخرج منها عام ١٨٢٩م، وهو نفس العام الذي انخرط فيه في سلك الرهبنة وتسمى باسم بارفيري.

في عام ١٨٣١م تبدأ مرحلة جديدة في حياة بارفيري أوسبنيسكي أثرت بشكل واضح على حياته المهنية والدينية؛ فقد انتقل إلى مدينة أوديسا[٨] Odessa حيث عُين مُعلما في مدرسة ريشيلو ليسيوم Richelieu Lyceum في ٢ من سبتمبر من نفس العام، ويتضح من مذكراته حبه الشديد لأوديسا، واعتباره أنه من حسن طالعه إرساله للعمل بها، فيشير في استهلالها "حينما غادرت ديري عام ١٨٣١م وأرسلت إلى أوديسا كانت حياتي سعيدة، وكانت السماء تُمطر فرأيت في ذلك فألا حسنا"[٩]. وبالفعل فقد كانت فترة وجوده في أوديسا فترة حافلة على المستويين الشخصي والاجتماعي؛ فتعرف خلالها على عدد من الشخصيات التي أثرت في نظرته للأمور واهتماماته المعرفية، وكان أهمهم صديقه ألسكاندرو ستوردزا[١٠] Alexandru Sturdzu (١٧٩١-١٨٥٤م) الذي عرف باهتمامه الشديد بالشرق وبالأرثوذكسية في بلاد الشام، وألسكندر هانجرلي[١١] Alexander Hangerli (١٧٦٨-١٨٥٤م) الذي اشتهر بمعرفته الواسعة بالعلوم واللغات

الشرقية، كما أبدى بارفيري نفسه اهتماما واضحا بالتاريخ والآثار، وسافر خلال فترة خدمته في أوديسا إلى شبة جزيرة القرم وبيسارابيا[١٢].

عُين بارفيري رئيسا للأساقفة عام ١٨٣٤م، وفي ١٨ من يوليو عام ١٨٣٨م أصبح رئيسا لمعهد خيرسون اللاهوتي Kherson Theological Seminary، ثم انتخب في ٢٣ من إبريل ١٨٣٩م عضوا في جمعية أوديسا للتاريخ والآثار[١٣]، ولكن يأتي عام ١٨٤٠م ليحمل معه نهاية فترة عمل بارفيري في أوديسا التي طالما أحبها وسافر إليها كلما واتته فرصة مناسبة، وفي نوفمبر ١٨٤٠م صدر قرار بتعيينه رئيسا للبعثة الكنسية الروسية في فيينا، وقد استلم عمله الجديد في ٣ من مايو ١٨٤١م، ومنذ هذا الوقت بدأ بارفيري في تدوين مذكراته، وظل في النمسا عاما ونصف، وأثناء إقامته فيها قام برحلة على طول الساحل الدلماسي؛ ليتفقد تاريخ تلك المناطق ويدرس آثارها[١٤]، وفي ٢٦ من يونيو ١٨٤٢م اختاره المجمع الروسي المقدس[١٥] للسفر إلى سوريا وفلسطين، فانتهى عمله في فيينا وحضر إلى سان بطرسبرج في أكتوبر ١٨٤٢م[١٦].

ارتبط إرسال بارفيري أوسبنيسكي إلى بلاد الشام بتزايد الاهتمام الروسي بهذه المناطق، فإذا نظرنا إلى المشرق العربي بصفة عامة، وبلاد الشام بصورة خاصة نجدها قد لفتت أنظار واهتمام الدول الأوروبية، والقيصر الروسي نيقولا الأول Nicholas I (١٨٢٥-١٨٥٥م) منذ نهاية الربع الأول من القرن التاسع وذلك للأسباب التالية:

أولا: غزو نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte (١٧٦٩-١٨٢١م) لمصر عام ١٧٩٨م، ثم خروجه بحملة من أجل السيطرة على الشام، ورغم فشله في ذلك إلا أنه لفت الأنظار إلى أهميتها، فنجد الكاتب الفرنسي فرنسوا رينيه دوشاتوبريان François-René de Chateaubriand (١٧٦٨-١٨٤٨م) ينشر مذكراته عن رحلته إلى القدس عام ١٨١١م، وقد حذا عدد من الكتاب الأوربيين حذوه، الأمر الذي أدى إلى زيادة الاهتمام بتلك المناطق[١٧].

ثانيا: تأجج الخلاف بين محمد علي باشا(١٨٠٥-١٨٤٨م) والسلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) خلال حرب الشام الأولى (١٨٣١-١٨٣٣م)، ومبادرة روسيا بتقديم يد العون والمساعدة للسلطان، وما ترتب عليها من توقيع معاهدة معاهدة انكيار اسكله سي Unkiar Iskelessi في ٧ من يوليو ١٨٣٣م التي استغلت روسيا البند الأخير منها المتضمن "أن تكون بلاد الشام مسرحا للعمليات العسكرية في حال وقوع حرب جديدة بين السلطان العثماني ومحمد علي"، وأرسلت من جانبها بعض الضباط الروس لجمع معلومات عن المنطقة[١٨]، كما قامت أكاديمية سان بطرسبرج للعلوم والدراسات البحرية St Petersburg Academy of Sciences and the Navy[١٩] منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدراسات مستفيضة لبلاد الشام، أكدت على أهمية دعم المصالح الروسية في شرق البحر المتوسط، فأخذت روسيا تدافع عن مصالحها وتطلعاتها وأهدافها في هذه المنطقة عن طريق الاهتمام برعاية الحجاج الروس في الأماكن المقدسة[٢٠]؛ ولهذا بعد أن استقرت الأوضاع لمحمد علي في بلاد الشام عام ١٨٣٤م طلب دوهاميل /Duhame (١٨٠١-١٨٨٠م) قنصل روسيا في مصر تعيين وكلاء قناصل روس في غزة والقدس؛ ليقوموا بتنظيم ما يحتاج إليه الحجاج الروس من المؤن والخدمات وغيرها[٢١]، لكن إبراهيم باشا (١٧٨٩-١٨٤٨م) رفض ذلك؛ حتى لا يفتح الباب أمام الروس لمزيد من المطالب، وأشار إلى أنه في حالة وصول الرعايا والحجاج الروس إلى يافا، يُمنحون خطابات توصية إلى مسئولي المدينة التي يرغبون في الذهاب إليها، سواء أكانت غزة أم القدس، وأن تقدم لهم الأشياء التي يطلبونها بمساعدة المسئولين عن هاتين المدينتين على أن يدفعوا أثمانها[٢٢].

ثالثا: شهدت فترة حكم إبراهيم باشا لبلاد الشام (١٨٣١-١٨٤٠م) تدفقا هائلا للإرساليات البروتستانتية والكاثوليكية، التي تسابقت في مجالات النشاط الديني والثقافي وحرصت على فتح المدارس، وإنشاء المطابع، ونشر الكتب ولاسيما الكتب المقدسة، وظهرت إنجلترا وبروسيا على مسرح المشرق العربي لتمثيل المصالح البروتستانتية؛ فقد تأسست أسقفية القدس البروتستانتية عام ١٨٤١م التي أعطى تأسيسها الدعم الرسمي لنشاط البروتستانت في المنطقة، كذلك فقد مثلت فرنسا المصالح الكاثوليكية، وكان الاهتمام بالنواحي الدينية أحد وسائل الدول الأوروبية لدعم

نفوذها في شرقي البحر المتوسط المتركز على سوريا وفلسطين[٢٣]، وأصبحت الأخيرة خلال تلك الفترة مقرا لعدد كبير من ممثلي الدول الأوروبية من رجال الدين والدبلوماسيين، وبدأت حجة حماية الأماكن المقدسة والحجاج أكبر ضمان لتحقيق الغلبة والفوز[٢٤].

أخذت روسيا ترقب بحذر أعمال المبشرين الأوروبيين، ونجاحاتهم في تأجيج الخلافات بين المواطنين، ودفع بعض الأرثوذكس إلى التخلي عن معتقداتهم[٢٥]، وعدت ذلك الأمر بمثابة تهديد لموقف روسيا السياسي والديني في بلاد الشام، وسعت إلى تعزيز نفوذها ودفع سيطرة الدول الأوروبية عنها من خلال أمرين: **الأول:** تقوية التمثيل الدبلوماسي الروسي في سوريا وفلسطين، ففي عام ١٨٣٩م أسست أول قنصلية لها في بيروت وتشمل صلاحياتها سوريا وفلسطين بكاملها.

الثاني: تعزيز وجودها في بلاد الشام من خلال الاهتمام بالأرثوذكس وتحسين أوضاعهم ورعاية كنائسهم، ولاسيما أن سياسة الكنيسة الروسية في القرن التاسع عشر شكلت جزءا من الدبلوماسية العامة لسان بطرسبرج التي سعت إلى تعزيز المصالح السياسية الروسية في الشرق الأدنى[٢٦]؛ فأرسلت إلى فلسطين في عام ١٨٣٨م بعثة برئاسة أندريه مورافييف Andrey Muravyov (١٨٠٦-١٨٧٤م) أحد أعضاء المجلس الاستشاري في المجمع الروسي المقدس، وكان نتيجتها أن قدم مورافييف اقتراحه بأن يمارس القيصر حمايته على الأماكن المقدسة الأرثوذكسية، وأن تؤسس إرسالية في القدس تنال دعم روسيا وتأييدها المادي والمعنوي، وتكون مركزا للنشاط الروسي السياسي في المنطقة[٢٧].

بناء على اقتراح مورافييف السالف الذكر قدم نيقولاي بروتاسوف Nikolay Protasov (١٧٩٨-١٨٥٥م) رئيس المجمع الروسي المقدس اقتراحا إلى القيصر نيقولا الأول في أول مارس ١٨٤٢م بإرسال أرشمندريت[٢٨] وثلاثة من الرهبان إلى القدس للإشراف على استخدام الصدقات الروسية، ورعاية الحجاج الروس[٢٩]، فأحال القيصر هذه المسألة إلى وزير خارجيته نسلرود Nesselrode (١٨١٤-١٨٥٦م)[٣٠] للنظر فيها، وقد صادف ذلك الأمر هوى في نفس الأخير فكما يذكر ستافرو Stavrou أنه منذ عام ١٨٤١م أصبح وزير خارجية روسيا نسلرود أكثر اقتناعا بضرورة استخدام الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق لتحقيق "أغراض سياسية بحتة"[٣١]، وبالنظر إلى هذا التاريخ نجد أن روسيا وجدت في معاهدة لندن عام ١٨٤٠م، والقضاء على إمبراطورية محمد علي مجالا لتحقيق أطماعها في ممتلكات الدولة العثمانية في المشرق العربي تحت ستار حماية الأرثوذكسية[٣٢].

في ١٣ من يونيو ١٨٤٢م كتب نسلرود تعقيبا على سؤال القيصر مذكرة مطولة أرجع فيها الوضع غير المستقر للكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين ليس فقط إلى السيطرة الإسلامية، بل لمحاولة المبشرين الكاثوليك والبروتستانت في نشر معتقداتهم، وعدم كفاية الوسائل المادية والمعنوية لرجال الدين اليونانيين الأرثوذكس من أجل إحباط مساعيهم، واقترح إرسال مبعوث لم يسبق إرساله من قبل إلى القدس؛ حتى لا يثير شكوك الباب العالي، وغيرة الدول الأوروبية، وأن هذا الأمر من الأهمية بمكان ولاسيما بعد تعيين الأسقف البروتستانتي في القدس، والإجراءات التي يقوم بها المبشرون الإنجليكانيون، وأن إرسال رجل دين روسي إلى القدس سيحقق فوائد متعددة منها: الوقوف في وجه الدعاية الكاثوليكية والبروتستانتية، وحث المسيحيين الأرثوذكس على عدم التخلي عن عقيدتهم، وتقديم الدعم والتنظيم الفعال للحجاج الروس في القدس، والإشراف على توزيع الصدقات الروسية بشكل مناسب، بالإضافة إلى جمع المعلومات اللازمة للحكومة الروسية عن هذه المناطق، ولكن في الوقت نفسه سيتعين على المبعوث الروسي السفر متنكرا في صورة حاج قاصدا زيارة "الأماكن المقدسة"، مضيفا بأنه إذا أظهرت التجربة أن وجود هذا الرجل سيحقق مكاسب للكنيسة الأرثوذكسية فيمكن إطالة مدة بقائه هناك بعذر مقبول، وأن عليه التشاور مع القنصل الروسي في بيروت في كل ما يواجهه[٣٣].

في ٤ من نوفمبر ١٨٤٢م استدعى المجمع الروسي المقدس بارفيري أوسبنيسكي وأبلغه بتكليفه بالسفر إلى بلاد الشام، وأنه عليه أن يستمع إلى التعليمات التي ستوجه له من وزارة الخارجية بمنتهى الدقة، مشيرا إلى سرية المهمة التي سيرسل من أجلها، لكن بارفيري لم يتلق

أي اتصال من وزارة الخارجية حتى مايو ١٨٤٣م؛ فسافر إلى أوديسا ليجمع مزيد من المعلومات عن وضع الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق[٣٤]، فربما أراد الاستفادة بمعارف صديقه ستوردزا وألسكندر هانجرلي اللذين عرفا باهتمامهما بدراسة أحوال المسيحيين الأرثوذكس، كذلك فإن أوديسا كانت بمثابة نقطة انطلاق أساسية لروسيا على ساحل البحر الأسود ينتقل منها التجار والحجاج المسافرون إلى الدولة العثمانية[٣٥].

لم يحافظ بارفيري على سرية المهمة المكلف بها، فقد شاع خبر اختياره للسفر إلى بلاد الشام في سان بطرسبرج، وفي عصر يوم الأربعاء الموافق ٥ من مايو ١٨٤٣م استدعى إلى القسم الخاص بإدارة الشئون الأسيوية بوزارة الخارجية الروسية[٣٦]؛ لمقابلة المشرف على مهمته جريجوريفيتش سينيافين Grigorievich Senyavin وقد حضر هذا اللقاء سفير روسيا في إستانبول فلاديمير تيتوف Vladimir Titov (١٨٤٢-١٨٥٣م)، وقد أعرب تيتوف وسينيافين في بداية لقائهما بأوسبنيسكي عن أسفهما لما تنامى إلى علمهما من أن معلومات تعيينه للسفر إلى بلاد الشام أصبحت شائعة في سان بطرسبرج، وأنه لم يحفظ السر جيدا، وأن البوح بهذه المعلومات على سبيل الثرثرة أو حتى على سبيل التفاخر يعد أمر غير مقبول، وقد حاول أوسنبسكي تبرئه ساحته مشيرا إلى أنه يجب عليه أن يسطر في مذكراته بعض الكلمات لتوضيح موقفه، مشيرا إلى أنه قد حفظ السر جيدا، وأن انتشار خبر سفره إلى بلاد الشام كان بسبب معرفة أعضاء المجمع الروسي المقدس بها[٣٧]، وعلى الرغم من أن سرية المهمة كانت أساسية في مقترح نسلرود إلا أنهم أبقوا على بارفيري أوسبنيسكي؛ وربما كان السبب في ذلك اهتمامه بشئون الشرق الأدنى[٣٨].

طلب بارفيري أن يُرسل إلى بلاد الشام بشكل علني نيابة عن الكنيسة، ولاسيما مع انتشار خبر سفره، لكن سينيافين رد عليه بأن هذا الأمر "مستحيل"، مشيرا إلى أن هذه الشائعات لن تؤثر بحال على المهمة المكلف بأدائها في الشرق الأرثوذكسي، وزود بارفيري بتعليمات دقيقة بشأن المهمة المرسل لأدائها يمكن إجمالها في النقاط الآتية[٣٩]:

١. التنكر في صورة حاج، وألا يفصح بحال من الأحوال أنه أرسل من قبل الحكومة الروسية إلى بلاد الشام، وأن يجمع كل ما يمكن من معلومات عن الكنائس الشرقية من خلال ملاحظاته ومحادثاته العادية التي لا تثير أية شكوك.
٢. كسب ثقة رجال الدين الشرقيين، ومحاولة اكتشاف مطالبهم الحقيقية.
٣. معرفة أسباب تفوق نفوذ الكاثوليك والبروتستانت والأرمن في بلاد الشام.
٤. إقناع رجال الدين الشرقيين بشكل غير مباشر بتوزيع الكتب الدينية الروسية في مدارسهم، والتلميح إلى أن تلك الكتب سترسل من روسيا دون أي مقابل وبالكميات المطلوبة.
٥. الإشراف على مسألة توزيع الصدقات الروسية، ورعاية الحجاج الروس في القدس.

ركز سينيافين على ضرورة تنسيق الجهود بين بارفيري وقسطنطين بازيلي Konstantin Bazili (١٨٠٩-١٨٨٤م) القنصل الروسي في بيروت؛ لمعرفته الواسعة بشئون سوريا وفلسطين[٤٠]، وفي نهاية اللقاء طلب سينيافين من بارفيري أن يرسل تقاريره بشأن الوضع في بلاد الشام عقب عودته مباشرة إلى إستانبول، وأن يسلمها إلى تيتوف ثم يناقشه بشأن ما أورده في هذه التقارير، فأشار بارفيري بأنه سيلتزم بكل التعليمات التي قدمت له، وسينفذها بمنتهى الدقة[٤١]، ولكنه أراد أن يطمئن على ترتيب شؤونه المالية قبل مغادرته لسان بطرسبرج، ورغم أن المجمع المقدس حدد له راتبا مقداره ثلاثة آلاف روبل[٤٢] سنويا[٤٣]، لكنه قدم سؤالا إلى سينيافين حول إمكانية حصوله من وزارة الخارجية على أموال إضافية تعينه في فتره سفره، إلى جانب الراتب الذي قرره له المجمع المقدس، كما تساءل عن الوسيلة التي سيحصل من خلالها على راتبه، ويمكن ملاحظة حرص سينيافين على طمأنه بارفيري بخصوص هذه الناحية، وأخبره بأنه في حالة رفض المجمع المقدس تحمل نفقات سفره فستقوم وزارة الخارجية بدفعها له، وأنه سيحصل على جزء من راتبه قبل السفر إلى القدس، وسيرسل له الباقي تباعا، مختتما حديثه حول هذا الشأن بقوله: "اطمئن سوف تكون راضيا... سوف نؤمن لك تماما هذا الجانب"[٤٤]، وفي يوم السبت ١٥ من مايو ١٨٤٣م استُدعى بارفيري من جديد إلى القسم الخاص بإدارة الشئون

الأسيوية بوزارة الخارجية الروسية؛ ومنحه سينيافين ألف وخمسمائة روبل تكاليف السفر من سان بطرسبرج إلى القدس[٤٥].

أعرب بارفيري عن شكره الجزيل لسينيافين وطلب منه السماح له بالسفر إلى أوديسا لقضاء بضعه أيام ليراجع فيها اللغة اليونانية قبل سفره إلى القدس، فأشار بأن وزارة الخارجية لا تمانع بقائه في أوديسا حتى الخريف إذا وافق المجمع المقدس على ذلك، وأشار سينافين إلى تفهمه إلى حاجة بارفيري لنصيحه صديقه ستوردزا وتوجيهاته[٤٦]، ورغم ما ذكره دريك هوبوود أن بارفيري لم يعلم بتفاصيل مذكرة نسلرود[٤٧]، إلا أن بارفيري أشار في مذكراته أنه خلال لقائه بسينيافين في ١٥ من مايو ١٨٤٣م قرأ تقرير نسلرود بشأن إرسال مبعوث سري لـ"لأماكن المقدسة"، والذي زيله القيصر بكلمه "يُنفذ"، وأنه قبّل التقرير من شده توقيره له[٤٨].

ثانيا: بعثة بارفيري أوسبنيسكي الأولى إلى بلاد الشام (١٨٤٣-١٨٤٤م)

في ١٨ من مايو ١٨٤٣م أمر المجمع الروسي المقدس بارفيري أوسبنيسكي بمغادرة سان بطرسبرج إلى أوديسا تمهيدا للانتقال منها إلى إستانبول[٤٩]، التي وصلها في سبتمبر ١٨٤٣م حيث قابله السفير الروسي تيتوف، وأضاف إليه تعليمات جديدة أرسلها إليه نسلرود تتعلق بضرورة كسب ثقة المسيحيين العرب، وأن ذلك يمكن أن يحدث إذا تحدث بارفيري عن مصالح الكنيسة بأكملها بدلا من مصالح روسيا التي يمكن أن تثير الشكوك في وجود دوافع سياسية لوجوده في القدس[٥٠].

تعرف أوسبنيسكي أثناء أقامته بإستانبول على عدد من رجال الدين الأرثوذكس منهم القس جيروم الذي وعده بأنه سيرتب له مقابلة مع البطريرك المسكوني[٥١] جيرمانوس الرابع Germanus IV (١٧٩٠-١٨٥٣م) وبطريرك القدس اثناسيوس الخامس Athanasius V (١٨٢٧-١٨٤٤م) الذي كان يقيم في إستانبول[٥٢]، وبالفعل في ٢٩ من سبتمبر ١٨٤٣م زار بارفيري البطريركية المسكونية حيث استقبله رئيس الأساقفة تشافورسكي Chavorsky بلطف شديد، فقد سلمه رسائل من ستوردزا وألسكندر هانجرلي، ويعلق بارفيري في مذكراته على هذا اللقاء بقوله: "إنني لا أعرف إذا كان صادقا في مشاعره أم منافقا"، ويطرح تساؤل هل يريد الأسقف بهذا الاحتفاء أن يعطيه إشارة بأن مهمته السرية قد انكشفت أم ماذا؟، ومن خلال دراسة يوميات بارفيري أوسبنيسكي يمكن القول بأنه كثيرا ما كان يميل إلى المبالغة في إظهار تقدير واحترام الآخرين له، وقد ارتبط ذلك ببعض سمات شخصيته التي لاحظها كثيرا ممن تعاملوا معه، فقد أشاروا بأن تقديره لذاته لا يطاق[٥٣]، وقد أشار بارفيري نفسه عند ذكره لنفس الحادثة أن عددا من الرهبان الذين حضروا هذا اللقاء لم يشاهدوا ترحيب تشافورسكي به، وبعد هذا اللقاء اصطحب الأخير بارفيري لزيارة بطريرك القدس، حيث وصف في كلمات يملؤها الورع هذا اللقاء، وتأثره البالغ عند رؤية البطريرك بقوله: "قبلت يده اليمنى التي باركتني باسم الآب والابن والروح القدس... كان قلبي ينبض بعنف، وقد سيطر علي الخجل الشديد"[٥٤].

بدأ بارفيري رحلته إلى بلاد الشام بزيارة بيروت التي وصلها على متن باخرة نمسوية في ٢٣ من أكتوبر ١٨٤٣م[٥٥]، فقد استقبله المطران بنيامين Benjamin -أحد أهم رجال الدين في مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت- وأكرم وفادته وأحسن معاملته، ثم انتقل لزيارة دمشق التي وصلها في ٢٩ من أكتوبر من نفس العام، وقد استقبله بطريرك أنطاكية[٥٦] ميثوديوس Methodius بترحاب شديدة، وأعاره فرسه للتنقل به، وقدم له تاريخا مكتوبا مترجما من اللغة العربية شمل قائمة محدثة بالكنائس الأرثوذكسية التابعة له، وباستخدام هذه القائمة زار أوسبنيسكي الكنائس والأديرة الأرثوذكسية في أنحاء سوريا في الفترة من أكتوبر إلى ديسمبر ١٨٤٣م[٥٧].

قدم بارفيري نتائج جولته في سوريا في تقريره إلى المجمع المقدس عام ١٨٤٧م الذي رسم فيه صورة قاتمة عن تلك الكنائس الفقيرة التي يجهل روادها معتقدات الإيمان الأرثوذكسي، وأشار إلى أن أشد ما كان يمثل وطأة على نفسه هو تحول الكنيسة الأرثوذكسية من كونها

الكنيسة المسيحية السائدة في المنطقة إلى كنيسة عديمة الأهمية؛ وأرجع ذلك إلى "الاضطهاد الإسلامي وانتشار التبشير الكاثوليكي الذي حقق اختراقا كبيرا للمجتمعات الأرثوذكسية السورية"، ووفق للسجلات الإحصائية التي حصل عليها من بطريركية أنطاكية فقد بلغ عدد سكان سوريا حوالي ٤٣٢٥٠٠ نسمة، يشكل المسيحيون أغلبية فيزيد عددهم عن النصف بقليل، منهم فقط ٦٦٣٤٠ أرثوذكسي، كما أشار أن هؤلاء الأرثوذكس لا وزن لهم ولا تأثير في المجتمع أو في الناحية السياسية، فلم يعمل أحد منهم في مناصب حكومية مهمة، ولم تكن من بينهم عائلة واحدة ذات أهمية في سوريا، ولم يكن منهم ملاك أثرياء[٥٨]، كما انتقد بشدة تعيين شخص يهودي كممثل لروسيا في حلب، ورأى أن ذلك يوثر على مكانة روسيا بين سكان المدينة من الأرثوذكس[٥٩].

أشار بارفيري في تقريره أن بطريركية أنطاكية مؤسسة ضعيفة ليس لها أثر فعال في المنطقة، وألقى باللائمة في ذلك على القيادة الأرثوذكسية اليونانية في إستانبول، التي أخضعت البطريركية منذ القرن الثامن عشر إلى البطريركية المسكونية، حيث تولي رجال الدين اليونانيين العرش البطريركي، وعملوا على استبعاد رجال الدين الأرثوذكس العرب من المناصب العليا في الكنيسة، وأهملوا الاحتياجات الروحية للأرثوذكس في سوريا، فلم يمنحوهم تعليما دينيا جيدا، كما حرموهم من تعلم بعض الأمور المقدسة الضرورية مثل تعلم الأيقونات[٦٠]، وأمام خيبة آمالهم في رجال الدين اليونانيين تحولت عائلات أرثوذكسية كثيرة في سوريا إلى الكاثوليكية حيث تمتعوا بالحماية الفرنسية[٦١].

لقد كان تصوير أوسبنيسكي لوضع الأرثوذكسية في سوريا مخيبا لآمال المسئولين الروس في المجمع المقدس ووزارة الخارجية؛ الذين تصوروا الكنائس الأرثوذكسية فيها كشبكة مترابطة يمكن من خلالها زيادة أثر النفوذ الروسي في المنطقة، ولم يقتصر تقرير بارفيري على وصف الحالة آنذاك؛ لكنه قدم أفكارا ملموسة بشأن استعادة قوة الكنيسة الأرثوذكسية في سوريا، وسبل دعم العلاقات بينها وبين الكنيسة الروسية، وذلك من خلال إرسال الصدقات الروسية مباشرة إلى بطريرك أنطاكية ميثوديوس دون الرجوع للبطريرك المسكوني؛ حتى يتمكن من توفير احتياجات الأرثوذكس في سوريا بشكل أفضل، بالإضافة إلى دعم وزارة الخارجية الروسية، والمجمع الروسي المقدس تطلعات ميثوديوس بشأن الاستقلال عن البطريرك المسكوني، مشيرا إلى أن هذا الأمر يتفق مع القوانين الكنسية، كما طالبهم بالتدخل من أجل القضاء على الإدارة المركزية للكنائس الأرثوذكسية الشرقية داخل الدولة العثمانية، ووضع بطريركية أنطاكية تحت الإشراف الروسي، ولكن اقتراح بارفيري قوبل بالرفض فلم يرغب أعضاء المجمع المقدس ووزارة الخارجية في تفكيك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية[٦٢].

بعد أن أمضى بارفيري قرابة الشهرين متجولا في أنحاء الشام، ولى وجهه شطر القدس التي وصلها في ٢٠ من ديسمبر ١٨٤٣م، وكان في استقباله وفد من الرهبان المحليين الذين دعوه للبقاء في البطريركية اليونانية، لكنه رفض ذلك وأقام في دير القديس ثيودور St. Theodore، حيث أقام الحجاج الروس خلال تلك الفترة، وبعد وصوله إلى القدس حرص على مقابلة المواطنين ورجال الدين الأرثوذكس، وجمع معلومات دقيقة عن حالة الكنيسة الأرثوذكسية[٦٣]، وفي بداية عام ١٨٤٤م خرج لزيارة بيت لحم والناصرة والخليل وغزة، كما زار عددا من القرى الصغيرة المجاورة للقدس[٦٤]، وأديرة الصحراء، ودخل الكنائس الأرثوذكسية فيها وزار مكتباتها وقابل القساوسة المحليين[٦٥]، وكان أهم من قابلهم خلال رحلته الأولى إلى القدس أسقف اللد كيرلس الذي التقى به في يونيو ١٨٤٤م، وتحدث معه كثيرا بشأن الأرثوذكس في بلاد الشام[٦٦].

أصيب أوسبنيسكي بخيبة أمل شديدة للحالة السيئة التي وجد عليها الكنائس الأرثوذكسية في فلسطين، وقد رأي أن الوضع الكنسي في فلسطين أسوأ منه بكثير من الوضع في سوريا، وقد زاد وطأة الأمر في نفسه أنه لازال شابا قليل الخبرة ترعرع ونشأ في كنف الكنيسة الروسية الأرثوذكسية التي اتسمت بقوتها وعظمتها[٦٧]، وقد أرجع سوء حالة الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين إلى لامبالاة رجال الدين اليونانيين، وقلة معرفتهم الدينية، كذلك

إقامة بطريرك القدس في إستانبول، وتركه إدارة الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين إلى مجموعة من الرهبان يطلق عليهم "أخوة القبر المقدس"، مشيرا إلى أن السكان الأرثوذكس العرب توقفوا منذ زمن بعيد عن اعتباره قائدهم الروحي[٦٨]، ولهذا فيعد بارفيري أوسبنيسكي أول روسي يزور القرى الأرثوذكسية الأكثر عزلة والأقل تطورا، فقدم لروسيا معلومات مفصلة نابعة عن معايشة حقيقية للوضع في سوريا وفلسطين[٦٩].

أخفق بارفيري في التقرب من رجال الدين اليونانيين في القدس، وفي كسب ثقتهم، وقد أشار في مذكراته بأنهم تجاهلوه بمجرد وصوله إلى القدس، ولم يمنحوه أي تقدير أو تكريم خاص[٧٠]؛ ولهذا بالغ في وصفهم بصفات ذميمة فأشار بأنهم فاسدون غير صالحين لوظائفهم، وأن مظهرهم بسيط مثل الأنبياء ولكنهم في الحقيقة حاقدون تملأ قلوبهم مكرا وغلا[٧١]، وتشير إلين كين Eileen Kane أن كراهيته لليونانيين وموقفه المحتقر لهم دفعهم إلى النفور منه[٧٢]، كما يذكر ستافرو أن رفضه الإقامة في البطريركية اليونانية، وإقامته في دير القديس ثيودور أثار استياء رجال الدين اليونانيين، فاتخذوا جميع التدابير الاحترازية ضده، موضحا أن بارفيري لم يمنح نفسه فرصة لإقامة العلاقات الودية التي كان عليه إقامتها معهم حيث كن لهم كراهية شديدة[٧٣]، ويمكن القول بأن إقامته في دير القديس ثيودور لم يكن الغرض منها في البداية التقليل من شأن اليونانيين؛ فلم يكن له صفة رسمية تجعله يتجه مباشرة إلى البطريركية اليونانية، بل أنه بصفته حاج كان عليه أن يتجه للإقامة حيث يقيم الحجاج الروس.

تكشف كتابات بارفيري أوسبنيسكي أن علاقته غير الطيبة برجال الدين اليونانيين لم تكن ترتبط بشخصه في المقام الأول، لكن بسبب موقفهم المعادي من رعاية روسيا لمصالحهم، واتهامهم للحكومة الروسية بعد سيطرتها على بيسارابيا وجورجيا بسيطرتها على ممتلكات البطريركية الأرثوذكسية الشرقية هناك، وحرمان رجال الدين من إيراداتها، مما تسبب في فقرهم وأنهم لم يأخذوا عروض القيصر بحماية روسيا لهم مأخذ الجد؛ مما شكل عقبة كبيرة أمام أوسبنيسكي لإقامة صداقة مع رجال الدين الأرثوذكس اليونانيين، فقد كتب إلى تيتوف سفير روسيا في إستانبول في إبريل ١٨٤٥م "ليس بإمكاني الحكم على هذا الموقف أو عواقبه، ولكني لا أعرف الرد المناسب حينما يردون على اقتراحي برعاية روسيا لمصالحهم بقولهم توقفوا عن حرماننا من ممتلكاتنا وحقوقنا القانونية"، كما أشار بأن هناك "شائعات" منتشرة في فلسطين حول صدق مساعي روسيا في حماية الكنائس الأرثوذكسية؛ فقد أخبره عدد من رجال الدين اليونانيين استنكارهم لموقف القنصل الروسي في ولايتي مولدافيا Moldavia وولاشيا Wallachia[٧٤] العثمانيتين؛ فلم يبادر بحماية المسيحيين الأرثوذكس المعرضين للاضطهاد من قبل السلطات العثمانية، وكذلك دعم قسطنطين بازيلي لمصالح البابويين Uniates[٧٥] على حساب مصالح الأرثوذكس[٧٦].

عاد بارفيري إلى إستانبول في أغسطس ١٨٤٤م، وأثناء وجوده فيها توفي اثناسيوس الخامس في ١٦ من ديسمبر من نفس العام، وكان المتعارف عليه أن بطريرك القدس كان له الحق في ترشيح خليفته، ولكن تمشيا مع أفكار نسلرود وبضغط من تيتوف أقرت مسألة انتخاب بطريرك القدس من خلال جماعة أخوة القبر المقدس، وفي ٢٧ من ديسمبر ١٨٤٤م أرسلت الخارجية الروسية إلى قنصلية روسيا في بيروت لأخبار جماعة أخوة القبر المقدس بوفاة البطريرك اثناسيوس الخامس، وأنهم سينتخبون البطريرك الجديد[٧٧]، مما أغضب البطريرك المسكوني؛ لأنه سيحد من نفوذه التقليدي على بطريرك القدس، الذي كان بسبب إقامته في إستانبول تحت وصيته[٧٨]، وكتب بارفيري تقريرا بعد وفاة اثناسيوس الخامس أوصى فيه الحكومة الروسية بالضغط على البطريرك المنتخب كي يعود للإقامة في القدس، وأن ذلك يعد خطوة أولى من أجل إصلاح أحوال الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين، ولاستعادة البطريرك شرعيته المفقودة، والحد من تأثير المبشرين ولاسيما الكاثوليك[٧٩]، ورغم أن بارفيري نفسه أشار في أحد تقاريره المرسلة إلى تيتوف إدراكه لصعوبة هذا الأمر[٨٠]، فإن سوء أحوال الكنيسة

الأرثوذكسية في فلسطين، وتخلي عدد كبير من السكان الأرثوذكس عن عقيدتهم جعل الخارجية الروسية تأخذ مقترحات أوسبنيسكي مأخذ الجد، ولاسيما مع ما أظهره من اهتمام واضح بأحوال الأرثوذكس ليس فقط الذين يقيمون في بلاد الشام بل في ظل الحكم العثماني بأسره.

بناء على أوامر نسلرود أقنع تيتوف البطريرك المسكوني بضرورة عودة بطريرك القدس الجديد إلى المدينة المقدسة؛ لتعزيز شرعية منصبه، وقد انتخب كيرلس الثاني أسقف اللد من قبل رجال الدين في بطريركية القدس في ٢٨ من مارس ١٨٤٥م، وقد قوبل ذلك بالترحيب من قبل نسلرود وتيتوف فقد كان البطريرك الجديد من المؤيدين لروسيا، وقد نمت بينه وبين بارفيري صداقة أثناء لقائهما في يونيو ١٨٤٤م حينما كان كيرلس أسقفا للد، وكما توقع بارفيري فإن عودة البطريرك الجديد إلى القدس ساعدت في تعزيز شرعيته في أعين سكان المدينة المحليين، وفي رسالة موجهة إلى تيتوف عام ١٨٤٦م قدم بازيلي تقريرا عن الزيارة الأخيرة لبطريرك القدس الجديد إلى الأبرشيات الأرثوذكسية واصفا البهجة والفرحة التي انتابت السكان المحليين بسبب ذلك(٨١).

أثناء إقامة بارفيري في إستانبول أعد تقاريره التي كان لزاما عليه تقديمها إلى السفير الروسي في إستانبول بشأن ملاحظاته عن الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين، ويذكر دريك هوبوود أنه أخرج تقريرا واحدا قدمه إلى تيتوف في ٨ من نوفمبر ١٨٤٤م، بينما يذكر ستافرو أنه قدم تقريرين وصف فيهما الحالة البائسة في كنيسة القدس، لكن يمكن مخالفة ذلك وترجيح ما ذكرته لورا جيرد ويان بوتين بأن بارفيري قدم عددا من التقارير الموسعة إلى تيتوف كتبها خلال الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر ١٨٤٤م(٨٢)، فقد قدم في ٥ من سبتمبر ١٨٤٤م تقريره الأول الذي يحمل عنوان: "ملاحظة تاريخية عن الكاثوليك العرب أو البابويين في سوريا وفلسطين" تحدث فيه عن البابويين، وأنه رغم اعترافهم بسلطة البابوية في روما حيث قبلوا العقائد الكاثوليكية، فإنهم احتفظوا بالطقوس الدينية البيزنطية الشرقية، ثم قدم في ١٢ من أكتوبر ١٨٤٤م مقالا تاريخيا مفصلا إلى تيتوف وصف فيه الأماكن المقدسة في القدس، وعرض فيه لتاريخ الجماعات المسيحية التي سكنتها مبتدئا حديثه عن اللاتين ثم الأرمن فاليونانيين الأرثوذكس، والصراع الدائم بينهم من أجل زيادة نفوذهم في بلاد الشام، كما اشتمل المقال على بيانات إحصائية مفصلة عن دخل ونفقات كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المقدسة(٨٣).

في ١٢ من أكتوبر ١٨٤٤م – أيضا-أعد بارفيري تقريرا مفصلا عن "حالة الكنيسة الأرثوذكسية في القدس"، قدمه إلى تيتوف في ٢٨ من أكتوبر من نفس العام، وقد قسم التقرير إلى أربعة أقسام يمكن عرضها على النحو التالي:

القسم الأول أوضح فيه المشاكل الجسيمة التي تعاني منها الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين، وقد انتقد بشدة إقامة بطريرك القدس في إستانبول، وتدني المستوى التعليمي لرجال الدين اليونانيين، وعدم اهتمامهم بتعليم الأرثوذكس العرب، مشيرا بأنه لا يوجد أمل في بزوغ فجر التنوير الروحي في القدس؛ طالما أن جماعة أخوان القبر المقدس يعتقدون أن التعليم أمر غير ضروري، موضحا أنهم لا يفكرون سوى في جمع الأموال من الصدقات التي تصل إلى الأديرة، كما يفتقدون وجود الرهبنة الحقيقية؛ فقد انتهكوا مسألة العزوبة وسمحوا بإقامة النساء معهم في الأديرة (٨٤)، ولعل هذا يوضح كراهية بارفيري الشديدة لهم، فكان دائما ما يصفهم بعدم الأمانة(٨٥).

القسم الثاني من التقرير ركز على نشاط البعثات التبشيرية، ونجاحها في تخلي السكان الأرثوذكس عن معتقداتهم، وقد افتتحه بقوله "تتعرض الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين لهجوم هائل، ومعاناة شديدة من القوى الروحية والسياسية المتنوعة التي تسعى إلى تدميرها"(٨٦)، وقد فصل في هذا القسم من التقرير محاولات الكاثوليك والبروتستانت لنشر مذاهبهم بين الأرثوذكس، كما تحدث عن الأرمن الذين وصفهم بأنهم هراطقة وأنهم لا يشكلون خطرا على الأرثوذكسية بسبب الاشمئزاز العام منهم (٨٧).

القسم الثالث من التقرير قدم فيه بعض المقترحات لدعم الأرثوذكسية في فلسطين، منها الاهتمام بإنشاء مدرسة دينية كبيرة تهتم بتعليم أخوة القبر المقدس تعليما دينيا سليما، وكذلك الاهتمام بتعليم أبناء الكهنة العرب وتخصيص مدرسة لهم في أحد أديرة القدس، على أن تكون منفصلة عن المدرسة الأولى، وكذلك استعادة حياة الرهبنة السليمة في كل الأديرة، وتعليم الإناث وإنشاء المستشفيات ودور المسنين في القدس، وأن يستفيد من هذه المؤسسات اليونانيون والعرب على حد سواء(٨٨).

القسم الرابع من التقرير اقترح فيه إرسال بعثة روحية دينية دائمة إلى القدس، برئاسة أحد الأساقفة وبعض رجال الدين الروس الذين تلقوا تعليما أكاديميا، ومعهم طبيب ورسام أيقونات، على أن تحرص هذه البعثة على إثارة ضمير رجال الدين اليونانيين، وتهتم بالأرثوذكس العرب، وتعاملهم باحترام، وتحميهم من السلطات العثمانية، وتهتم بمسألة توزيع الصدقات، واقترح أن يدرس أعضاء هذه البعثة اللغة العربية بعناية ودقة لترجمة الكتب الروسية، وتوزيعها على المواطنين الأرثوذكس في سوريا وفلسطين(٨٩).

بحلول عام ١٨٤٥م كانت البعثة الروسية المقترح إرسالها إلى القدس قد خطط لها بارفيري إلى حد كبير؛ ففي ٦ من يناير من نفس العام أرسل إلى تيتوف خطة مفصلة لهيكل البعثة، موضحا الأهداف المرجوة منها، ووظائف كل عضو فيها، واقترح أن تكون القدس مركزا لنشاط البعثة، وأن تكون مستقلة عن القنصلية الروسية في بيروت، وأن تتبع المجمع الروسي المقدس مباشرة إلا في حالة تعرضها لمشكلة خارجية أو حرمانها من أحد حقوقها بوجه عام فحينئذ تتدخل القنصلية الروسية لحماية البعثة، كما تتدخل فيما يخص البعثة من مسائل تتطلب التشاور مع الوالي العثماني، واقترح أن تشرف البعثة على مسألة توزيع الصدقات على الأرثوذكس في فلسطين، أما بشأن الحجاج الروس فيحصل رئيس البعثة من القنصل الروسي في بيروت على قائمة بأسمائهم، وفي حالة غياب القنصل الروسي يتولى هو مسألة الإشراف على هؤلاء الحجاج، ويتدخل لفض أية منازعات تنشأ بينهم، كما يقوم بتوقيع العقاب على من يرتكب منهم أية جرائم، ولا يترك هذا الأمر للوالي العثماني، مشيرا بأنه "يجب ألا يُنَجس الروسي في السجن العثماني حتى إذا كان مخطئا"(٩٠)، ولعل هذه المهام تعطي إشارة واضحة إلى تطلع بارفيري لمزيد من الصلاحيات لرجال الدين الروس تفوق اختصاصاتهم الدينية، وهذا يتوافق إلى حد كبير مع طبيعة شخصيته التي اتضحت من مذكراته؛ فكان دائما لا يقنع بما يُمنح له، ويتطلع لمزيد من الامتيازات والصلاحيات.

اقترح بارفيري أن تكون البعثة المزمع إرسالها علنية، وأن يرسل المجمع الروسي المقدس رسالة "أخوية" إلى بطريرك الإسكندرية وأنطاكية؛ لإخبارهم بأمر تأسيسها في القدس، وأن يحذوا الروس بذلك حذو الإنجليز الذين قاموا بأمر مشابه أثناء إنشاء إرساليتهم، واقترح أن يؤسس دير في القدس يكون نزلا لأعضاء البعثة، على أن يكون مدة بقاء الأسقف والرهبان سبعة أعوام على الأكثر، أما الطبيب فيبقى هناك مدى الحياة لخدمة جيرانه، ويتم تغيير الأسقف والرهبان تباعا بحيث لا يتركون المدينة المقدسة مرة واحدة ولكن واحدا تلو الآخر، واقترح أن يُسمح لرئيس البعثة بالسفر إلى مصر وسوريا للتعرف على حالة وحاجة بطريركية الإسكندرية وأنطاكية، غير أنه من الأفضل قيامه بذلك في نهاية مدة خدمته؛ حتى يتمكن من زيارة الأديرة في سيناء والأديرة السورية(٩١).

بعد أن أكمل بارفيري تقديم تقاريره بشأن زيارته الأولى لبلاد الشام، حصل على أذن من الخارجية الروسية بالسفر إلى مصر لزيارة الأماكن المقدسة في سيناء، ثم عاد إلى سان بطرسبرج في أكتوبر ١٨٤٥م، ورغم أن بارفيري توقع أن يتلقى شكرا وتقديرا من بروتاسوف رئيس المجمع المقدس، لكن ما حدث كان عكس ذلك تماما، فيشير بارفيري أنه قابله "ببرود وجفاء شديدين"، ولم يهتم في بداية لقائه به بسؤاله عن الأوضاع في الشرق الأرثوذكسي، بل انتقد بشدة بقاءه شهرا كاملا في أوديسا دون سبب قبل عودته إلى سان بطرسبرج، فرد بأنه بعد أن قطع رحلة مرهقة عبر البحار والأراضي قد سمح لنفسه أن ينتظر في أوديسا بعض الوقت

حتى يتسنى إصلاح عربة النقل، وإرسال متعلقاته من إستانبول[٩٢]، وإذا كان رجال المجمع المقدس قد أظهروا قليلا من الاهتمام والتعاطف مع رجال الدين الذين يعملون لصالح وزارة الخارجية[٩٣]، فقد كان الأمر أسوأ بالنسبة لبارفيري الذي كان دائم الانتقاد لكل من حوله، حتى أن علاقته بالسفير الروسي في إستانبول تيتوف قد ساءت كثيرا بعد معاملته القريبة معه، لانتقاده الدائم لبازيلي ولغيره من الدبلوماسيين الروس في الشرق[٩٤].

لكن بارفيري تلقى دعمه الرئيسي من نسلرود وزير خارجية روسيا الذي أثنى على عمله في القدس[٩٥]؛ لأنه أظهر حرصا على مصير السكان الأرثوذكس الذين يعيشون في ظل الحكم العثماني[٩٦] وكان هذا يتفق مع سياسة نسلرود خلال الأربعينيات من القرن التاسع عشر، حيث استخدام قضية حماية الأرثوذكس لدعم النفوذ الروسي على حساب الدولة العثمانية، ولهذا فحينما قابل سينيافين أوسبنيسكي بعد عودته إلى روسيا في ٢٥ من أكتوبر ١٨٤٥م عامله بلطف شديد، مشيرا إلى إدائه للعمل المكلف بها في بلاد الشام بشكل جيد، واستحقاقه مكافأة نظير ذلك، وطلب منه أن يحدد المكافأة التي يرغب فيها، فشكره بارفيري على هذا التقدير، وأوضح في مذكراته أنه قد شعر بالخجل الشديد من مدح سينيافين له، وأنه رد عليه قائلا "أنه يلتمس أجره من الله ثم برضا القيصر"، لكن سينيافين أعاد عليه عرضه مرة أخرى، وطلب منه التخلي عن خجله، وذِكر المكافأة التي تطيب له، فرد بارفيري بأن أية مكافأة سيحصل عليها ستكون موضع تقدير له، أما ولابد أن يقول فأنه يريد وسام القديسة آن Ann من الدرجة الثانية"[٩٧].

ثالثا: بعثة بارفيري أوسبنيسكي الثانية إلى بلاد الشام وتأسيس البعثة الروحية الأولى في القدس (١٨٤٧-١٨٥٤م)

على الرغم من أن مهمة بارفيري أوسبنيسكي التي كُلِفَ بها في زيارته الأولى لبلاد الشام ارتبطت بصورة أساسية بجمع معلومات عن الوضع القائم في هذه المناطق، لكنه تصور أن واجبه يحتم عليه إثارة اهتمام المسئولين الروس بشأن الأرثوذكس في سوريا وفلسطين، وبدون هذا التصرف من جانب بارفيري لتأخر وصول البعثة الروسية إلى القدس إلى ما بعد حرب القرم؛ ولهذا وافق القيصر نيقولا الأول في فبراير ١٨٤٧م على إرسال بعثة كنسية روسية إلى القدس، وطلب من نسلرود وزير الخارجية والمجمع الروسي المقدس اختيار رئيس لها، والراجح أن هناك مناقشات ممتدة حدثت بين بارفيري وبين إدارة المجمع الروسي المقدس حول البعثة المزمع إرسالها قبل اختيار رئيسها، فقد أرادوا الاستفادة من خبراته السابقة أثناء سفره وإقامته في بلاد الشام عند التخطيط لإرسال البعثة.

كتب بارفيري مذكرة مفصلة أوضح فيها كل ما يتعلق بعمل البعثة، مبتدئا حديثه عن الجوانب المالية التي يجب مراعاتها عند التخطيط لإرسالها، فأوضح النفقات الضرورية اللازمة لأعضائها، مثل نفقات نقلهم على السفن البخارية من أوديسا إلى إستانبول، ومن الأخيرة إلى بيروت، ونفقات أماكن استراحتهم، بالإضافة إلى تكلفة نقلهم من بيروت إلى القدس، كما اقترح رواتب أعضائها موضحا ضرورة الأخذ في الاعتبار تكاليف إقامتهم في القدس، وما يلزمهم من أدوات منزلية لتأسيس مكان إقامتهم مثل مفارش المائدة والمناديل والسكاكين والشوك والشمعدانات، وأدوات الطهي والطاولات، وأن هذه الأشياء غير متوفرة في القدس؛ ولهذا يجب شراؤها من أوديسا أو إستانبول ثم نقلها بعد ذلك إلى المدينة المقدسة، ولم ينس بارفيري في تقريره المتسولين في القدس الذي يتسولون الصدقات يوم السبت فأوضح أنه يجب أن يخصص لهم مبلغ يوزع عليهم أسبوعيا، كما قدم ملاحظات تفصيلية عن شكل الملابس التي يجب على أعضاء البعثة ارتداؤها، بحيث تكون عباءاتهم الكهنوتية متشابهة مع تلك التي تلبس في الشرق وفي القدس[٩٨]، والراجح أن هذا التقرير أكد للخارجية الروسية والمجمع المقدس إلمام بارفيري بالأوضاع في بلاد الشام وخبرته بأدق التفاصيل فيها.

بعد ستة أشهر من المناقشات وقع الاختيار ثانية على بارفيري أوسبنيسكي ليترأس البعثة المزمع إرسالها إلى القدس، يرافقه ثلاثة أعضاء هم: الراهب إيرمونك فوفان غوفوروف Hieromonk Feofan Govorov، وطالبان من أكاديمية سان بطرسبرج اللاهوتية هما صولوفيف Soloviev ونيقولاي كريلوف Nikolai Krylov، على أن يذهبوا جميعا إلى القدس في صورة حجاج روس[٩٩]، ولكنهم يحملون تلك المرة إذنا وتوصيات رسمية من المجمع الروسي المقدس موجهة إلى بطريرك القدس كيرلس الثاني، ولعل هذا لا يعني اعتراف الحكومة الروسية رسميا بهذه البعثة، ولكن الراجح أن تلك الخطابات ذات الصبغة الدينية كان لتسهيل مهمة بارفيري عند تفاوضه مع بطريرك القدس للموافقة على تقديم القداس في بعض الأوقات باللغة السلافية للحجاج الروس[١٠٠].

اقترح بارفيري بعثة ذات سلطة دينية واسعة على رجال الدين اليونانيين في القدس، وأن يعمل أعضاؤها بشكل مستقل عن السلطات الدبلوماسية الروسية في المنطقة، ولاسيما أن علاقته ببازيلي كانت سيئة، فكان دائما ما ينتقد تصرفاته، ويحمله مسئولية ضعف الوجود الروسي في بلاد الشام بتجاهله مصالح الأرثوذكس، ولكن نسلرود الذي أصدر تعليمات جديدة بشأن البعثة في سبتمبر ١٨٤٧م كان له رأي مختلف عن تطلعات أوسبنيسكي، فأمر بأن يكون عمل البعثة سريا تحت الإشراف المباشر للقنصل الروسي في بيروت، أن يكون هدفها الأساسي تعزيز مشاعر الاحترام والثقة والمحبة للكنيسة الروسية، والعمل على استعادة مجد رجال الدين الأرثوذكس من خلال إصلاح رجال الدين اليونانيين[١٠١].

لم يكن بارفيري راضيا على الإطلاق عن مقترحات نسلرود، ووصف البعثة بأنها "سخيفة وبلا روح"، كما وصف بعض رجال الكنيسة الروسية مثل بوريس منصوروف آراء نسلرود بأنها أفكار خاملة اقترحت في وزارة الخارجية من قبل شخص ليس لدية أية معرفة بالظروف المحلية وأوضاع البطريركية في القدس[١٠٢]، ويمكن تأكيد صحة هذا الرأي ففي الوقت الذي حرص فيه نسلرود على إخفاء طبيعة عمل البعثة الروسية، وكبل رئيسها بعدد من المحظورات كان النشاط الكاثوليكي والبروتستانتي في القدس على أشدة؛ فبالنسبة للكاثوليك فقد افتتح البابا بيوس التاسع Pius IX (١٧٩٢-١٨٧٨م) في ٢٣ من يوليو ١٨٤٧م البطريركية الكاثوليكية في القدس، وعين جوزيف فاليريا Joseph Valerga (١٨١٣-١٨٧٢م) رئيسا لها عام ١٨٤٨م، وقد عمل فاليريا على رفع مكانة الكاثوليك في بلاد الشام، حتى أن المراقبين الروس قد علقوا بعد بضعة سنوات من نشاطه على أن نجاحات الكاثوليك في فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يرجع إلى حد كبير إلى جهوده[١٠٣]، أما البروتستانت فقد عمل رئيس أسقفيتهم صمويل جوبات Samuel Gobat (١٧٩٩-١٨٧٩م) على نشر البروتستانتية بكل ما أوتي من قوة بين السكان، وأشار بارفيري في تقاريره التي أرسلها إلى تيتوف أن جوبات يعمل "بكل قلبه ومن أعماق روحه" لزيادة أعداد البروتستانت في الأراضي المقدسة، وأنه يبذل قصارى جهده لتحويل اليهود وكذلك الأرثوذكس إلى البروتستانتية "[١٠٤].

على أية حال غادر بارفيري سان بطرسبرج في ١٤من أكتوبر ١٨٤٧م بحماس أقل وتقدير أكثر واقعية عن المهمة التي يجب عليه الاضطلاع بها في القدس، التي وصلها ورفاقه في ١٨ من فبراير ١٨٤٨م، وأدرك بارفيري أن نجاح مهمته يتوقف إلى حد كبير على تكوين علاقة قوية مع بطريرك القدس الجديد كيرلس الثاني، ويبدو أن الأمر كان أكثر أريحية بالنسبة له؛ بسبب الصداقة القديمة التي نمت بينهما، بالإضافة إلى ولاء البطريرك لروسيا فقد حصل على منصبه بدعم الروس له، ولهذا فغالبا ما سعى كيرلس الثاني للحصول على نصيحة بارفيري فيما يعترضه من أمور وكان كثير ما يقبلها.

أما عن علاقة بارفيري برجال الدين اليونانيين، فتذكر إلين كين أنه مثلما حدث في المرة الأولى فإنهم قد تشككوا في نواياه، ورفضوا كل محاولاته لكسب ودهم وإقامة علاقة طيبة معهم، في حين يذكر هوبوود أنه خلال زيارته الثانية للقدس نشأت علاقة بينه وبين رجال الدين اليونانيين في حدود ضيقه، فلم يثر عدواتهم خلال تلك الفترة، كما أنهم قبلوا وجوده على

اعتبار أنه وكيل دبلوماسي وممثل رسمي للكنيسة والحكومة الروسية[١٠٥]، ويمكن ترجيح رأي هوبوود؛ فيتضح من مذكرات بارفيري أنه لم يستمع إلى تعليمات نسلرود بشأن إصلاح رجال الدين اليونانيين، وتركهم وشأنهم، وفي الوقت نفسه حرصوا هم على تحييد علاقتهم به، ولاسيما أنهم اعتبروه ممثلا الحكومة الروسية بدليل ما ذكره بارفيري "أنه في القدس لا أحد يعتبرني كحاج إلى الأماكن المقدسة، بل ينظرون كوكيل دبلوماسي للدولة الروسية وأن هذا الأمر أصبح لا يمكن إخفاؤه"[١٠٦].

أقام بارفيري وأعضاء البعثة الروسية في دير رؤساء الملائكة[١٠٧]، وقد اشتكى مرارا من إقامتهم في هذا الدير، ووصف الغرف التي يقيمون فيها بأنها "تشبه الزنازين"، ويبدو أن هذه الغرف كانت ضيقة لدرجة أنه طلب من كيرلس الثاني غرفة فارغة لتخزين الكتب، والأدوات المنزلية"[١٠٨]؛ ولهذا حاول بكل طاقته إيجاد مبنى جديد لإقامة أعضاء البعثة، وفي البداية أخذ يبحث عن ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية الجورجية التي خضعت للكنيسة الروسية بالتبعية بعد غزو روسيا لجورجيا في أواخر القرن الثامن عشر، حيث استحوذت الكنيسة الجورجية على مدى قرون على عدد من الأديرة والكنائس في القدس، ومنذ نهاية أربعينيات القرن التاسع عشر شارك بازيلي بارفيري اهتمامه بتاريخ حيازة الكنيسة الجورجية الأرثوذكسية للأراضي في القدس على أمل إيجاد مكان ملائم لإقامة أفراد البعثة، ولما لم تسفر تلك الجهود عن التوصل للحل المبتغى، وسع بارفيري اهتمامه بمختلف العناصر المسيحية التي تمتلك بعض الأماكن في القدس، كالأحباش، وحرص على توطيد أواصر العلاقات معهم، ولكنه لم يفلح أيضا في تحويل أي من ممتلكاتهم إلى منزل للبعثة الروسية[١٠٩].

في ١٦ من إبريل ١٨٥٢م أرسل بارفيري مذكرة للقائم بالأعمال الروسي في إستانبول أوزيروف Aleksandr Ozerov (١٨١٧-١٩٠٠م) أوضح فيها اقتراح البطريرك كيرلس الثاني إنشاء مبنى في المنطقة الواقعة شمال دير رؤساء الملائكة، يخصص لإقامة أفراد البعثة، وأنه قام بمساعدة أحد المهندسين المعمارين المعروفين بكفاءتهم بعمل الرسومات المطلوبة لإنشاء المبنى، وأوضح أنه من المقترح إنشاء منزل من طابقين، يتكون العلوي من أربع غرف تخصص لإقامة أعضاء البعثة، بالإضافة إلى أخرى لتناول الطعام، أما الطابق السفلي فيشتمل على غرف للشماس[١١٠] والمترجم والخدم، وواحدة تخصص للمكتبة وأخرى للمطبخ[١١١]، وقد أبدت وزارة الخارجية الروسية اهتماما بشأن تلك المذكرة، وعهدت إلى بازيلي بمناقشة البطريرك كيرلس الثاني بشأن ضرورة إتمام هذا المشروع، فأشار الأخير بأنه سيتحمل نفقات إنشاء المبنى، على أن يترك للحكومة الروسية تجهيزه وإمداده بما يلزمه من أثاث[١١٢]، وعلى الرغم من أن المجمع المقدس أوضح تحمله لنفقات إتمام المبنى بأن يقدم اثنى عشر ألف روبل على مدار أربع سنوات وذلك لأن الأرض والمبني المقام عليها سيصبحان ملكا لروسيا[١١٣] ولكن هذا لم يحدث فلم يتخذ المجمع المقدس أو الخارجية الروسية أية خطوات حقيقية في سبيل إتمام إنشائه؛ وربما كان ذلك بسبب توتر الأوضاع في القدس قبيل نشوب حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م)، لكن بطريرك القدس قام بتأسيس مسكن صغير لإقامة بارفيري وأعضاء البعثة عرف في القدس باسم منزل بارفيري[١١٤].

أبدى بارفيري أوسبنيسكي خلال زيارته الثانية للقدس تعاطفا واضحا مع المسيحيين الأرثوذكس في فلسطين، في تقاريره إلى الخارجية الروسية حرص على نقل صورة واقعية لأوضاعهم السيئة وما يعانونه من فقر وضيق، مشيرا إلى أن هناك أرامل وأيتام ومسنين أرثوذكس حالتهم المادية سيئة للغاية، وأن بعضهم يضطر إلى التسول ليوفر قوت يومه، كذلك الشباب فكثير منهم لم يكن بحالة أفضل من الفئات السابقة، فلا يتوفر لهم من المال ما يعينهم على توفير متطلبات الزواج، وأن جميعهم يحتاجون دعما ماديا من الحكومة الروسية لتحسين أحوالهم وإخراجهم من معاناتهم، وفي تقريره إلى تيتوف بتاريخ ١٥ من نوفمبر ١٨٤٩م اقترح أن ترسل الحكومة الروسية ألف روبل سنويا إلى الكنيسة الفلسطينية، تقسم إلى ثلاثة أقسام غير متساوية بالضرورة حسب الاحتياجات الطارئة؛ ينفق الأول في الاهتمام بعمارة وتزيين الكنائس، والثاني في طباعة الكتب العربية اللازمة لتعليم العرب الارثوذكس، ويخصص الجزء الثالث من

أجل الإنفاق على المحتاجين من الأسر الأرثوذكسية والمساعدة في زواج الشباب، وأن يشترك بطريرك القدس وأعضاء البعثة الروسية في الاشراف على هذه النفقات[١١٥].

كذلك عمل بارفيري جاهدا على الوقوف في وجه التبشير البروتستانتي والكاثوليكي؛ فقد حرص على زيارة القرى المجاورة للقدس، وتفقد أحوالها وإرسال مبالغ صغيرة من المال لسكانها[١١٦]، وقد عارض أوسبنيسكي بشدة في لقائه مع بطريرك الإسكندرية إيرثيوس Ierotheos في سبتمبر ١٨٥١م مسألة تخفيض عدد الأساقفة الأرثوذكس في الشرق؛ لما في ذلك من فرصة لإضعاف الكنيسة الأرثوذكسية وإتاحة الفرصة لعمل المبشرين الغربيين[١١٧]، ولتحقيق مزيد من التواصل مع السكان العرب المحليين رغب أوسبنيسكي في تعيين مترجم للبعثة الروسية، وأرسل إلى أوزيروف القائم بالأعمال الروسي في إستانبول للسماح له بذلك، موضحا أنه من أجل النهوض بوضع الكنيسة الأرثوذكسية، وتحقيق الدعم المرجو لرجال الدين العرب الأرثوذكس لابد من التواصل ا لجيد معهم، ولهذا لابد من إيجاد مترجم للبعثة، وحدد له راتبا سنويا قدره أربعمائة روبل، وقد نجح بارفيري في العثور على مبتغاه في أحد المسيحيين الأرثوذكس المتعلمين من دمشق ويدعى فضل الله صروف، الذي قدم إلى القدس وعمل كمعلم للغة العربية لأفراد البعثة، وكذلك كمترجم لهم، وقد تحمس له بارفيري حتى أنه طلب من أوزيروف منحه الجنسية الروسية واعتباره مواطنا روسيا[١١٨].

وبالنظر إلى جهود بارفيري أوسبنيسكي وأفراد بعثته خلال زيارته الثانية للقدس نجد أن أهم ما يميزها هو الاهتمام بالناحية التعليمية، وفي تقريره إلى السفارة الروسية في إستانبول المؤرخ بـ ١٥ من نوفمبر ١٨٤٩ م أكد على ضرورة الاهتمام بالمدارس التي يتعلم فيها الأطفال الأرثوذكس في القدس، وإمدادها بما تحتاج إليه من كتب ومواد تعليمية[١١٩]، كما حث البطريرك كيرلس الثاني على إرسال المعلمين إلى القرى وإنشاء مدارس فيها، فكان هناك تعاون مثمر في الناحية التعليمية بين كيرلس الثاني وأوسبنيسكي الذي وصف البطريرك بأنه "محب للتنوير"[١٢٠]، وخلال تلك الفترة تحسنت مدرسة الرعية الابرشية في القدس، وتلقى عدد قليل من القساوسة العرب تدريبا فيها، كما تأسست مدرسة دينية في دير الصليب في القدس[١٢١]، وأصبح بارفيري مديرا لها.

على الرغم من أن مدرسة دير الصليب افتتحت في الأساس من أجل تعليم أبناء الأرثوذكس العرب ولكن واقعيا لم يلتحق بها سوى قليل منهم، وقد أرجع بارفيري ذلك إلى أربعة أسباب، أولها عدم ثقة العرب في رجال الدين اليونانيين، وعدم حبهم وتقديرهم لهم، ولا سيما وأنهم كانوا يعاملونهم "ببرود بل وبازدراء"، أما السبب الثاني فإن جميع العرب تقريبا كانوا فقراء يحرصون على تعليم أبنائهم فقط القراءة والكتابة في الفترة من ست إلى تسع سنوات، ثم يدفعونهم إلى العمل الحر في أو التجاري أو يبقونهم لمساعدتهم في الأعمال الزراعية، والسبب الثالث يرتبط بأنهم لا يرون أي فائدة من التعليم طويل الأمد للأطفال؛ ولاسيما مع اقتصار الوظائف الكتابية على بعض الفئات لم يكن من بينهم العرب، ويتعلق السبب الرابع بما تردد من شائعات حول الطلاب العرب الذين يلتحقون بهذه المدرسة، وأنهم سيصبحون رهبانا وسيرسلون إلى اليونان؛ ولهذا عزف الأهالي عن إرسال أولادهم إليها[١٢٢]، ومع اهتمام بارفيري بالنواحي التعليمية عينه بطريرك القدس عام ١٨٥٣م رئيسا لمجلس أمناء جميع المدارس الفلسطينية[١٢٣]، ومن أجل توفير الكتب الدراسية شجع بارفيري كيرلس الثاني على إنشاء مطبعة عربية في القدس، وبالفعل أنشئت في دير القديس نيكولاس St. Nicolas تحت إشراف المطبعي لازاريديس Lazaridis ، وتم استيراد الآلات وحروف الطباعة اليونانية والعربية من باريس، وبحلول شهر فبراير ١٨٥٤م طبعت أعمالا متعددة[١٢٤].

كان بارفيري في حاجة متزايدة للأموال لتطوير المدارس التي تولى الإشراف عليها، بالإضافة إلى رغبته في إنشاء مستشفى ومكتبة لمساعدة الحجاج الروس، فأرسل طالبا المساعدة المادية من سان بطرسبرج[١٢٥]، لكن طلباته قوبلت بالرفض تارة وباللامبالاة تارة أخرى، حتى أن راتبه الشخصي وراتب أفراد البعثة توقف عن الوصول لهم، فأرسل بارفيري في ٢٠ من إبريل ١٨٥٣م

إلى السفارة الروسية في إستانبول يطلب إرسال رواتبهم المتأخرة، موضحا تأزم الوضع المالي لأعضاء البعثة بشكل يصعب معه تلبية متطلبات الحياة الضرورية، وأنهم لجأوا إلى الاقتراض من بعض رجال الدين اليونانيين لسد احتياجاتهم[١٢٦]، ويذكر هوبوود أن بارفيري قبل تدريجيا حقيقة تخلي سان بطرسبرج عنه، وأنه بدون مساعدتهم لن يتمكن من تحقيق مزيد من تطلعاته[١٢٧]، لكن يمكن القول بأن رفض سان بطرسبرج لطلباته المالية لم يكن نوع من التخلي أو الترك، ولكن تطلعات بارفيري أوسبنيسكي وأهدافه الخاصة، والدور الذي أراد أن يلعبه في القدس كان مخالفا تماما للهدف الأساسي الذي أرسلت البعثة من أجله.

على أية حال فإن نشوب حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية قد وضع نهاية لبقاء البعثة الروسية في القدس؛ ففي أكتوبر ١٨٥٣م أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا وأرسل الباب العالي إلى كافة الولايات العثمانية في ١٨ من ديسمبر ١٨٥٣م لإبلاغ قناصل روسيا ووكلاءها "بأسلوب ملائم" أنه نظرا لنشوب الحرب بين الدولتين، فيجب عودتهم إلى بلادهم[١٢٨]، فغادر القنصل الروسي بازيلي سوريا في أواخر ديسمبر عام ١٨٥٣م، وكتب بارفيري إلى الإدارة الأسيوية بوزارة الخارجية الروسية في ٣٠ من يناير ١٨٥٤م ليسأل عن وضع البعثة، وشدد على ضرورة إرسال الأموال لأفرادها، مشيرا إلى أنه "اضطر إلى التسول"، واقترض مبلغ ثمانمائة روبل من رجال الدين اليونانيين، وأنه يأمل في أن تُتخذ إجراءات حاسمة وسريعة بشأن مصير البعثة في القدس، مشيرا إلى أن بعض المسلمين الذين وصفهم بـ"الغوغاء" قاموا بالهجوم على المسيحيين الأرثوذكس في بعض المناطق مثل دمشق وبيروت وعكا ويافا واللد، ولكن السلطات المحلية العثمانية تدخلت لوقف هذا الاعتداء، والراجح أن ما ذكره بارفيري بشأن وضع المسيحيين الأرثوذكس في القدس جاء لحث الخارجية الروسية على مد يد العون والمساعدة لأفراد البعثة؛ ففي نفس التقرير أشار إلى أن الوضع العام للمسيحيين في الشرق جيد، وأن هذا لا يرجع إلى الإجراءات التي تتبعها الحكومة العثمانية بقدر ما يرجع إلى التقارب والروح الطيبة بين المسلمين والمسيحيين في هذه المناطق[١٢٩].

أوضح بارفيري في رسالته السابقة إصرار القنصل الفرنسي بول إميل بوتا Paul-Emile Botta (١٨٠٢-١٨٧٠م) على طرده من القدس؛ باعتباره أحد الشخصيات الروسية المهمة، ويذكر بارفيري أن السلطات العثمانية ردت على القنصل الفرنسي بقولها: "إننا نعرفه جيدا ونعلم أن الأرشمندريت الروسي يعيش من أجل خلاص روحه ولا يتدخل في الأمور المثارة بأي شكل من الأشكال، وبالتالي لا يوجد سبب يدعو إلى إرساله من هنا"، وأن هذه المسألة أثبتت مدى احترام العثمانيين للبعثة الروسية، وأنه يعلم جيدا أن القنصل الفرنسي سيرفع الأمر إلى إستانبول ويطلب إخراجه من القدس[١٣٠]، والراجح أن بارفيري كان كثيرا ما يميل إلى افتراض أمور لا تتفق مع الواقع بحيث يعطى لنفسه مزيدا من التقدير، فبالنظر إلى الأمر العثماني السابق الذكر الصادر بتاريخ ١٨ من ديسمبر ١٨٥٣م كان لزاما عليه كمواطن روسي مغادرة القدس، لكن قنصل النمسا تدخل ليؤجل قليلا من أمر إخراجه منها؛ حيث أشار بأن بارفيري ليست لديه أي صفة دبلوماسية، بل يعد من ضمن الرعايا الروس الذين يشملهم القرار السلطاني الذي ينص على "تولي سفارة النمسا وموظفيها أمور الرعايا والتجار الروس، وإمهالهم ستة أشهر لترتيب أحوالهم"[١٣١]، فانتقل بارفيري تحت حماية القنصل النمسوي الذي قدم له المال والسكن حتى غادر القدس في مايو ١٨٥٤م[١٣٢].

سافر أوسبنيسكي إلى سوريا ومنها عبر البحر المتوسط إلى إيطاليا وفي يوليو ١٨٥٤م قابل البابا بيوس التاسع بابا روما، ثم سافر إلى فيينا وقابل فيها الأمير ألكسندر ميخالوفيتش جورتشكوف[١٣٣] Aleksandr Mikhailovich Gorchakov (١٧٩٨-١٨٨٣م) سفير روسيا في النمسا حينئذ، وأثناء مناقشتهم حول شئون الكنيسة الأرثوذكسية أعرب بارفيري عن شكوكه حول صحة بعض طقوس قداس الكنيسة الروسية؛ حيث تختلف عن الطقوس اليونانية، ولعل هذا اللقاء وتلك الملاحظة قد أثرت بشكل كبير على مستقبل بارفيري، وتطلعاته في الشرق الأرثوذكسي، ولاسيما مع تغير الوضع السياسي والديني في روسيا في أعقاب هزيمة القرم، فقد

عُين جورتشكوف وزيرا للخارجية عام ١٨٥٦م، كما توفي بروتاسوف النائب العام للمجمع الروسي المقدس عام ١٨٥٥م، وبعد ولاية قصيرة لكاراسفيسكي Karasevski تولى تولستوى Tolstoy رئاسة المجمع الروسي المقدس (١٨٥٦-١٨٦٢م) وقد أدى تغير القيادة إلى اتباع سياسات جديدة(١٣٤).

عاد أوسبنيسكي إلى سان بطرسبرج في أكتوبر ١٨٥٤م، وفي الثالث من نفس الشهر زار المجمع المقدس، حيث استقبله أعضاؤه بجفاء أشد من ذي قبل؛ بسبب مقابلته للبابا بيوس التاسع، ووجهوا إليه نقدا شديدا بسبب بقائه في روما فترة من الوقت؛ ولكنه برر ذلك برغبته في زيارة الآثار القديمة، ومعرفة المزيد عن الأيقونات المسيحية، فجاء رد بعض أعضاء المجمع المقدس أنه لم يكن مسموح له بالذهاب إلى هناك، وقد علق بارفيري في مذكراته على هذه الرحلة بأنها "أثارت بشدة استياء السلطات الدينية في سان بطرسبرج"(١٣٥)، وفي اليوم التالي زار أوسبنيسكي الإدارة الأسيوية بوزارة الخارجية وقابل مديرها ليوبيموف Lyubimov ونائبه سينيافين اللذين أحسنا استقباله، ووعداه بدعم موقفه، ويعلق بارفيري على هذين الموقفين المتناقضين بقوله "أنا نفس الشخص ولكني في عيون البعض كنت مخطئا وفي عيون الآخرين كنت ناجحا، فكلام الرب حقيقي: لا يمكنك العمل لسيدين أحدهما يحبك والآخر يكرهك"(١٣٦).

قرر ليوبيموف في ٥ من مايو ١٨٥٥م منح بارفيري معاشا مقداره ألف روبل مدى حياته، وأشار أن ذلك بسبب قيامه بالمهمة التي كُلِفَ بها بجداره، وقد علق بارفيري على هذه المنحة بقوله: "أشكر الله بشدة على إعطائي مثل هذه الرحمة الملكية. أنا أنحني إلى ليو غريغوريفيتش سينيافين ونيكولاي إيفانوفيتش ليوبيموف، الذين قيموا عملي ومميزاتي... الآن سوف آكل الخبز الطري، ولن أتألم من الجوع، آخذا خبز المجمع المقدس القديم"(١٣٧)، والراجح أن تلك المكافأة جاءت بسبب تقدير ليوبيموف لجهود بارفيري في القدس، ومحاولته لرفع شأن روسيا بين السكان الأرثوذكس، أو كنوع من التعويض عن عدم وصول راتبه وما عاناه من صعاب أثناء وجوده في القدس، أما عن المهمة التي كُلِفَ بأدائها خلال زيارته الثانية للقدس فلم يقم بها على النحو المرجو كما أكد على ذلك مرارا وزير الخارجية الروسي جورتشكوف.

انتهت حرب القرم عام ١٨٥٦م بهزيمة روسيا عسكريا وسياسيا بشكل أضر كثيرا بهيبتها كقوة عسكرية، وكدولة كبرى مؤثرة في العلاقات الدولية؛ ولهذا اهتمت الأوساط السياسية والدينية في روسيا ببحث أفضل الوسائل التي يمكن من خلالها استعادة مركز روسيا المتفوق داخل الدولة العثمانية، وأجريت مناقشات متعددة لدراسة الموقف الجديد عن كثب، كان أهمها تلك التي دارت بين القيصر ألكسندر الثاني Alexander II (١٨٥٥-١٨٨١م)، والنائب العام للمجمع الروسي المقدس تولستوي، ووزير الخارجية جورتشكوف التي ترتب عليها اقتراح بتأسيس جمعية فلسطينية، وأكاديمية شرقية في أوديسا؛ لتدريب الطلاب على العمل في الشرق، وإرسال بعثات إلى اثينا وإستانبول ومصر، وكذلك إرسال بعثة ثانية إلى القدس، وكانت الإشكالية الأساسية التي واجهت المسئولين الروس اختيار رئيسا للبعثة، فقد قوبلت فكرة تعيين بارفيري أوسبنيسكي رئيسا للبعثة الجديدة بمعارضة شديدة، قاد هذه المعارضة جورتشكوف الذي انقلب عليه بعد لقائه في فيينا، وعقد العزم على عدم اختيار ممثل للكنيسة الروسية في القدس يكون غير مقتنع بصحة طقوسها الدينية، وقد أيده تولستوي الذي رأي أن تقدير بارفيري لذاته أمر لا يطاق(١٣٨)؛ ولهذا كان يعامله معاملة سيئة، ولا يستمع له في أي نقاش(١٣٩).

اتفق تولستوي وجورتشكوف في رأيهما على ترشيح الأسقف بوليكارب راديفيتش Polycarp Radaevich أسقف أوريول Oryol (١٨٥٦-١٨٦٧م) رئيسا للبعثة الروسية المزمع إرسالها إلى القدس، وفي ٢٣ من إبريل ١٨٥٧م وافق القيصر ألكسندر الثاني على ذلك(١٤٠)، ولكن بعد مقابلة جورتشكوف لبوليكارب أعرب عن ندمه على هذا الترشيح؛ وأوضح أنه لن يكون قادرا على إدارة البعثة بكفاءة، واقترح حينئذ أن يكون بارفيري مساعدا له في القدس، ولكن هذه الفكرة لم تلق قبولا في المجمع المقدس، الذي اقترح في ١٦من أغسطس ١٨٥٧م إرسال سيريل نوموفCyril Naumov (١٨٢٣-١٨٦٦م)(١٤١) رئيسا للبعثة، ووافق الكسندر الثاني على ذلك في

٢٦ من سبتمبر١٨٥٧م، وقد علق بارفيري على هذا الاختيار بقوله "إنني لست نادما على أنهم لم يرسلوني إلى القدس، ولكني حزينا على أحلامي التي تبددت، وأن عدم اختيارهم يعد إهانة لي، وانتقاصا من قدري ولاسيما في نظر رجال الدين الأرثوذكس الشرقيين الذين يعرفونني جيدا"[١٤٢]، ولكن كما جاء في تقرير الخارجية الروسية المقدم إلى القيصر بشأن أسباب إرسال بعثة ثانية إلى القدس، فإن جورتشكوف أوضح أن البعثة السابقة لم تحقق أيا من الأهداف التي أرسلت من أجلها، ولهذا استبعد تعيين بارفيري رئيسا لها[١٤٣].

أرسلت الخارجية الروسية إلى سفير روسيا في إستانبول بوتنييف Butenev (١٨٥٦-١٨٥٩م) لفتح مفاوضات مع الباب العالي بشأن تأسيس بعثة دينية في القدس، وقد وافق الباب العالي على ذلك، فتقرر إرسال بعثة نوموف بشكل علني؛ لتقوية الوجود الروسي في بلاد الشام، ولإظهار عظمة الطقوس الدينية الروسية ليس فقط في القدس بل في إستانبول أيضا. وبالنظر إلى أهداف البعثة يتضح إلى حد كبير نجاح جهود بارفيري في استكشاف الأوضاع في المدينة المقدسة، ونقله صورة واقعية عن أحوالها، ساعدت صناع القرار في رسم السياسة المستقبلية لروسيا في هذه المناطق، وعلى الرغم من أن مقترحاته لم يؤخذ بها بشكل فوري فكان هدف بعثة سيريل نوموف المحوري هو ضرورة الدعم الكلي للأرثوذكس العرب؛ حتى لا تغريهم الأعمال الخيرية للاتين في التحول الى الكاثوليكية [١٤٤]، ولعل هذا ما أكد عليه بارفيري مرارا في تقاريره إلى الخارجية الروسية، فقد أشار إلى ضرورة جعل الأفضلية في المساعدة للأرثوذكس العرب وليس لرجال الدين اليونانيين.

رابعا: زيارة بارفيري أوسبنيسكي الأخيرة للقدس عام ١٨٦٠م

على الرغم من عدم إرسال بارفيري كرئيس للبعثة الروسية في القدس[١٤٥] فإن رأيه كخبير في شئون الشرق الأرثوذكسي ظل يؤخذ به، وفي يناير ١٨٥٨م بناء على طلب الدوق قنسطنطين نيقولافيتش Konstantin Nikolayevich (١٨٢٧- ١٨٩٢م) أدلى بدلوه فيما قدمه بوريس منصوروف رئيس لجنة فلسطين فيما يتعلق بتنظيم أحوال الحجاج الروس، وأشار إلى ضرورة إنشاء قنصلية روسية في القدس؛ حتى تكفل للحجاج الروس الحماية، وتقدم لهم يد المساعدة، واقترح بدلا من وضع مبشر روسي بين السكان الأرثوذكس في فلسطين تعيين ممثل دائم للكنيسة الروسية في بطريركية القدس[١٤٦].

كان بارفيري عام ١٨٦٠م على موعد للمرة الثالثة والأخيرة لزيارة بلاد الشام، للحصول على كتبه ومتعلقاته الشخصية التي تركها في القدس عند نشوب حرب القرم، فوصل يافا في ١٦ من فبراير ١٨٦٠م، ثم انتقل إلى الرملة في اليوم التالي، وقابل هناك فضل الله صروف المترجم السابق للبعثة الروسية، وأمضى برفقته يوما واحدا، ثم اتجه إلى القدس التي وصلها في ١٩ من فبراير، وقد أكرم بطريرك القدس كيرلس الثاني وفادته وأنزله في المنزل الذي نزل به من قبل الدوق قنسطنطين نيقولافيتش وأمضى فيه بضعة أيام مع عائلته، ويعلق أوسبنيسكي على إكرام البطريرك له بأنه "يتذكر جيدا الخدمات الجليلة التي أسدتها للعرش البطريركي ولاسيما فيما يتعلق بترتيب المدارس اللاهوتية"[١٤٧].

وفي يوم ٢١ من فبراير زار بارفيري دير رؤساء الملائكة حيث قضى هناك ست سنوات سابقة، وتفحص متعلقاته فوجدها كاملة وبحالة جيدة، فقدم أسمى آيات الشكر لحارس الدير، ولنائب البطريرك الأسقف ميليتوس الذي كان برفقته، وتبرع بجميع أدوات المطبخ للبطريركية[١٤٨]، ثم قضى معظم وقته منذ يوم ٢٢ من فبراير يبحث عن المخطوطات والأيقونات وهندسة بناء الكنيسة في بيت لحم، وتظهر في كتاباته إعجابه الشديد بهم وانبهاره بتلك المدينة، التي أنهى حديثه عنها في مذكراته بقوله: "أشكر الله الذي جعلني أرى مرة أخرى آثار بيت لحم المقدسة ووصفها"[١٤٩]، وفي ٢٦ من مارس غادر بيت لحم واتجه إلى دير القديس سافا الذي وصله في اليوم التالي وظل به حتى ١ من إبريل ١٨٦٠م حيث قام بفحص الرموز القديمة واللوحات الجدارية، وبدراسة مكتبتين هناك، واحدة في الكنيسة الرئيسية والأخرى في برج جستنيان[١٥٠]، وزار كذلك دير الصليب المقدس في القدس واهتم بدراسة أيقوناته، وقد صمم عددا من

الرسومات لهذه المواقع أدرجها في مذكراته، وأثناء وجوده في القدس هذه المرة ألتقى بارفيري بعدد من الدبلوماسيين الأوروبيين والروس، ولكنه عزف عن المشاركة في مناقشة الأمور السياسية العامة، غير أن تعليقاته على الرئيس الجديد للبعثة الروسية كانت ناقدة بشدة ومحرجة للغاية، رغم اللقاء الذي جمع بينهما في القدس وأثنى فيه أوسبنيسكي على المطبعة ومدرسة الفتيان والفتيات اللتين أسسهما من قبل، وأنه وجدهما في حالة جيدة تحت رعاية سيريل نوموف[١٥١]، وفي ٢٠ من يوليو ١٨٦٠م أرسل بارفيري كل متعلقاته على الأبل إلى يافا تمهيدا لنقلها بحرا الي روسيا، وفي ٢٣ من يوليو غادر القدس مشيرا إلى أن إقامته القصيرة في المدينة المقدسة كانت ممتعة للغاية[١٥٢].

خامسا: مرتكزات عمل بارفيري أوسبنيسكي لدعم الوجود الروسي في بلاد الشام

اتبع بارفيري أوسبنيسكي بعض الوسائل التي هدفت إلى دعم الوجود الروسي في بلاد الشام يمكن إجمالها في العناصر التالية:

١. زيادة أعداد الأرثوذكس الموالين لروسيا

أثناء وجود أوسبنيسكي في سوريا كان منشغلا بشكل عام بزيادة عدد السكان الأرثوذكس من خلال حماية مصالح الجماعات غير الأرثوذكسية السورية، وإبعادها عن النفوذ الكاثوليكي، وكذلك القيام بحملات تعليمية لمساعدة الجماعات "شبة الأرثوذكسية" في سوريا - مثل البابويين واليعاقبة[١٥٣] - على إدراك طبيعتها الأرثوذكسية الأصلية، ودفعها إلى الاتحاد ولم الشمل مع الكنيسة الأرثوذكسية الأم في سوريا، التي وصفها بأنها كالأم التي أنجبت نسلا كثيرا، لكنه بمرور الوقت تنصل منها، وتناسى عقيدتها ومبادئها مما أدى إلى معاناتها معاناة شديدة[١٥٤].

اهتم أوسبنيسكي بصفة خاصة بالبابويين في سوريا الذين ينالون عطف الجماعات الكاثوليكية التبشيرية منذ القرن الثامن عشر، وحث على إعادتهم للكنيسة الأرثوذكسية الأم من خلال الإقناع والتسامح، بدلا من استخدام أساليب الضغط والقوة، واقترح أن يطلب المجمع الروسي المقدس من رجال الدين الأرثوذكس السوريين الكف عن حرمان المسيحيين الأرثوذكس بسبب المسائل الصغيرة، واتخاذ موقف تصالحي تجاه البابويين، مشيرا إلى أنه في حالة موافقة البابويين على العودة إلى إيمانهم الأصلي سيزداد عدد المسيحيين الأرثوذكس بشكل كبير في جميع أنحاء سوريا[١٥٥]، ولعل هذا يتفق مع سياسة القنصل الروسي في بيروت بازيلي الذي حاول كسب ولاء البابويين لروسيا مؤكدا أن القيصر قد أمره برعاية مصالح كافة المسيحيين في سوريا وفلسطين، وكان كثيرا ما يعطيهم من الصدقات الروسية، الأمر الذي أثار حفيظة الأرثوذكس ولاسيما بطريرك أنطاكية[١٥٦].

كمراقب للأحداث في بلاد الشام منذ عام ١٨٤٣م أدرك أوسبنيسكي أن هناك مجموعات عرقية متعددة كانت غير راضية عن الحكومة المارونية الدرزية الجديدة في لبنان، وأن بعضهم قد سعوا إلى الحصول على دعم أجنبي لحماية مصالحهم، فكتب إلى المجمع الروسي المقدس والخارجية الروسية بشأن إمكانية تحويل بعض العناصر الشيعية في لبنان ولاسيما النُصيريين[١٥٧] إلى الأرثوذكسية، وذلك استنادا إلى ملاحظاته بشأن طقوسهم وعبادتهم، مشيرا إلى أن هذه الجماعات تشارك المسيحيين الأرثوذكس في بعض الأمور منها تقديس القديس جورج والقديس يوحنا المعمدان، وفقا للإحصاءات التي حصل عليها أوسبنيسكي من بطريرك أنطاكية فقد بلغ عددهم مجتمعين حوالي خمسة وثمانين ألفا، وبالتالي فإن تحولهم للأرثوذكسية سيعيد تشكيل الخريطة الدينية في بلاد الشام[١٥٨].

وجد بارفيري أيضا في تحول بعض العائلات الدرزية الكبرى في لبنان إلى الأرثوذكسية فرصة ذهبية لدعم النفوذ الأرثوذكسي بما يحقق مصالح روسيا، وأكد في تقريره للمجمع المقدس عام ١٨٤٧م أنه تلقى عروضا من العائلات الدرزية في لبنان للتحول إلى

الأرثوذكسية مقابل حصولهم على الحماية الروسية، ورأى في هذه التحولات المحتملة فرصة ليس فقط لزيادة حجم السكان الأرثوذكس في سوريا، ولكن أيضا لتعزيز نفوذ الكنيسة الأرثوذكسية في المنطقة المنقسمة حديثا في لبنان، حيث يفتقد الأرثوذكس وجود عائلة أرثوذكسية كبرى أو مؤثرة تتولى الزعامة هناك[١٥٩]، لكن قسطنطين بازيلي لم يدعم مقترحات أوسبنيسكي بشأن دعم الأرثوذكسية في لبنان من خلال تحول الدروز إلى أرثوذكس؛ لأنهم في كل الأحوال يشكلون أقلية سياسة هناك، كما ذكر بازيلي أنهم خلال فترات الاضطرابات في لبنان قاموا بقتل المسحيين على مرأى ومسمع من الباشوات والجيش مثلما حدث عام ١٨٤٥م[١٦٠]، وأشار أنه من خلال عدم انحيازه لأي من الطوائف في لبنان استطاع دعم الوجود الروسي في هذه المناطق، مما أدى إلى النفور بين بازيلي وبارفيري فقد اعتقد الأخير أن القنصل الروسي في بيروت يهدف إلى تقويض جهوده الرامية لدعم الأرثوذكسية في سوريا[١٦١].

وفي فلسطين ركز بارفيري جهوده على اجتذاب بعض العناصر المسيحية "شبة الأرثوذكسية" وقصد بهم الأحباش والأقباط واليعاقبة، فبالنسبة للأحباش الذين أقاموا في القدس ووصفهم بأنهم "رقيقي القلوب" حاول تحقيق مزيد من التقارب معهم، والاطلاع على المخطوطات المحفوظة في أديرتهم المحلية، وحضور احتفالاتهم، وقد أخبر صديقة ستوردزا أنه يرغب في السفر إلى الحبشة، وعلل ذلك بقوله "ربما يساعدنا الرب في بناء مجتمع أرثوذكسي روحي هناك"، ورغم أنه لم يوفق في مبتغاه[١٦٢]، فإنه سعى جاهدا إلى تحقيق الوحدة العقائدية بين الكنيستين الأرثوذكسية والحبشية وأشار أنه من خلال تحليله لطقوسهم الدينية وجد أن معتقداتهم مرآة خالصة للأرثوذكسية الصحيحة[١٦٣]، وفي ١٦ من أغسطس ١٨٥١م أقدم على شراء شاب حبشي عمره أحد عشر عاما، اختُطف منذ أربعة أعوام سابقة من موطنه، وبيع في القدس، وكان هذا الشاب يتحدث العربية بطلاقة مع معرفة ليست بكبيرة بلغته الأم، وحرص بارفيري على تعميده وإرساله إلى الحبشة ككاهن للتجار الأرثوذكس اليونانيين هناك الذين فقدوا راعيهم منذ فترة طويلة[١٦٤]، وقد هدف بارفيري من وراء إثبات الطبيعة الأرثوذكسية للأحباش إلى أن تصبح ممتلكاتهم الثمينة في كنيسة القيامة، وغيرها من المواقع في القدس تحت سيطرة الأرثوذكس مما يعزز هيبة الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين[١٦٥].

حرص بارفيري على إقامة علاقات ودية مع رجال الدين الأقباط في القدس، وكسب ثقتهم وإثبات أنهم مسيحيون أرثوذكس، مشيرا إلى أن الكنائس الأرثوذكسية الشرقية كانت مخطئة في اعتبار الأقباط هراطقة، واستنادا إلى ملاحظاته عن طقوسهم وممارساتهم استنتج عدم وجود قضايا عقائدية أساسية مختلفة بين الكنائس الشرقية والكنيسة القبطية؛ ولهذا حاول إقناع بازيلي بضرورة ضم الأحباش والأقباط إلى الكنيسة الأرثوذكسية؛ لما يترتب على ذلك من دعم الوجود الروسي في القدس، محذرا إياه بأن بريطانيا لديها مصالح كبيرة تدفعها للتحالف مع رجال الدين الأقباط والأحباش في القدس الذين لديهم صلات قوية مع أرباب مذهبهم في الحبشة ومصر والهند؛ مما قد يكون مفيدا في حماية مصالح إنجلترا في الخليج الفارسي والطريق المؤدي إلى الهند[١٦٦].

على الرغم من أن مسألة الحماية الروسية لليعاقبة قد أثيرت منذ عام ١٨٤١م[١٦٧] فإن روسيا لم تتخذ موقفا حاسما إزاءها؛ ربما كان الدافع وراء ذلك الاعتراض الشديد للبطريرك المسكوني في إستانبول الذي شدد على أن اليعاقبة هراطقة في معتقداتهم وطقوسهم، وحاول منع تيتوف السفير الروسي في إستانبول مواصلة المفاوضات بشأن هذا الموضوع، وحينما أثيرت هذه القضية من جديد عام ١٨٥٢م أرسل أوسبنيسكي إلى أوزيروف السفير الروسي في إستانبول -الذي خلف تيتوف في نفس العام- يوضح له أن الدعم الروسي لليعاقبة في سوريا وفلسطين ممكن أن يجلب لروسيا منافع اقتصادية وسياسية ودينية بعيدة المدى، ولاسيما أن بطريرك اليعاقبة إلياس ألمح إلى إمكانية تحولهم إلى الأرثوذكسية الشرقية، مما سيؤدي إلى زيادة أعداد الأرثوذكس في بلاد الشام، كما سيسمح للكنيسة الروسية السيطرة على ممتلكات اليعاقبة في كنيسة القيامة، وأشار إلى أن هناك أربعين ألف عائلة يعقوبية تعيش على ضفاف نهري دجلة

والفرات، كما أن لهم صلات قوية مع إخوانهم في الهند؛ ولهذا فإن حماية روسيا للبعاقبة سيدعم موقف روسيا في منافستها لبريطانيا في شرق البحر المتوسط والهند والتركستان[١٦٨].

٢. حيازة الأراضي الكنسية في القدس

اهتم بارفيري بحيازة الأراضي الكنسية في القدس كأحد الوسائل المساعدة على دعم الوجود الروسي في بلاد الشام، ولهذا كتب إلى السفارة الروسية في إستانبول في عام ١٨٤٤م تقريرا بعنوان: "حالة كنيسة القدس" تحدث فيه بامتعاض عن وجود حرملك على سطح كنيسة القيامة[١٦٩] مباشرة بين القبتين الكبيرتين للكنيسة، وأن لهذا البناء نافذة تطل على الكنيسة من الداخل، وكان هذا المكان مملوكا لشيخ مسلم من قبيلة عربية ذات شأن امتلكت المبنى منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وأشار أوسبنيسكي إلى أسفه لتدنيس هذا الموقع المسيحي المقدس؛ فوفقا لروايته فإن أصحاب المبنى كان يلقون القمامة داخل الكنيسة هذا إلى جانب الضوضاء التي تصدر منه إلى الكنيسة خلال الاحتفال بالقداس المسائي، وحث الخارجية الروسية على المسارعة في شراء هذا المكان قبل أن يقدم الكاثوليك على اتخاذ تلك الخطوة، وفي مذكرة قدمها إلى السفارة الروسية في إستانبول بتاريخ ٦ من يناير ١٨٤٥م أشار إلى موافقة مالك العقار على بيعه مقابل خمسمائة ألف قرش عثماني، وأن يكون المشتري أما الحكومة الروسية أو بطريرك القدس الأرثوذكسي، معلقا بأنه إذا تم شراء هذا الموقع "فسيتحرر هيكل الرب من الفساد"[١٧٠].

لم تتخذ الخارجية الروسية حتى عام ١٨٥٠م أية خطوات تجاه شراء هذا المبنى؛ ولهذا أعد بارفيري تقريرا اقترح فيه أن توضح الخارجية الروسية أن الدافع وراء شراء المبنى هو "مراعاة حرمة وقداسة أماكن العبادة"، ذلك الأمر الذي تحرص عليه أيضا الدولة العثمانية بما تقره من سياسة التسامح الديني، مع ضرورة تذكير السلطات العثمانية بالتزام القيصر نيقولا الأول بحماية حرمة المساجد في روسيا، وأخبر بأنه لن يكون سهلا إقناع السلطات العثمانية بتسليم الحرملك إلى روسيا لمعارضة المسلمين لذلك الأمر؛ ولهذا فقد أوصى بأن تقوم الحكومة الروسية بنشر "شائعات" بأنها تنوي شراء المبنى لإيواء حجاجها من المسلمين الذين يمرون عبر القدس في طريق عودتهم من مكة، وأن مثل هذه الشائعات يمكن أن تُرضي المسلمين من سكان القدس، وتسهل المهمة على المسئولين الروس لإتمام عملية الشراء، وفي واقع الأمر لم يكن لدى أوسبنيسكي نية حقيقية لتحويل المبنى كنزل للحجاج المسلمين، واقترح بدلا من ذلك استخدامه لإيواء رجال الدين والحجاج الأرثوذكس، لكن بازيلي عارضه في ذلك، أشار في تقريره إلى تيتوف في عام ١٨٥٠م بأنه من الأفضل استخدام المبنى لإيواء الحجاج المسلمين الروس؛ وأن ذلك الأمر يعد بمثابة فرصة عظيمة لإظهار اهتمام الحكومة الروسية برعاياها المسلمين، ونظرا لأن قضية شراء الحرملك قد استمرت معلقة حتى عام ١٨٥١م فقد أصر صاحب المبنى على إخطار السلطات العثمانية برغبة روسيا في شرائه[١٧١]، ومن المرجح أن السبب في ذلك اختلاف الأوضاع في القدس عما كانت عليه لحظة موافقته على البيع عام ١٨٤٥م فقد تأزمت الأمور بين روسيا وفرنسا بسبب الخلاف حول إدارة الأماكن المقدسة، فربما خشى المالك أن يلحق به ضرر ولاسيما وأن فرنسا كانت ترغب في شراء المبنى نفسه بحجة جعله مسكنا لرعاياها المسلمين المتجهين إلى مكة من الجزائر، وقد أمر القيصر نيقولا الأول بالتخلي عن فكرة شراء الحرملك حتى لا يزيد من حدة الخلاف القائم[١٧٢].

وبناء على توصيات بارفيري حرصت الحكومة الروسية في أعقاب حرب القرم على شراء الأراضي في فلسطين، وفي عام ١٨٥٩م اشترت باسم البعثة الروسية في فلسطين الأراضي الواقعة بين بوابة دمشق وساحة الميدان في بيت المقدس والتي تعرف الآن بالساحة الروسية، وفي أثناء زيارة بارفيري الأخيرة للقدس بدأت البعثة الروسية في بناء دير القديسة ألكسندرا Alexandra، ودير القديسين الثلاثة، وبناء مسكن من طابقين للبعثة التبشيرية الروسية، كما تأسست دار ضيافة كبيرة عرفت بالمجمع الروسي كانت مهيئة لاستقبال أكثر من ألف من الحجاج الروس[١٧٣].

٣. الاهتمام بالأرثوذكس العرب والدفاع عن مصالحهم

أبدى بارفيري اهتماما واضحا بمصالح العرب الأرثوذكس والدفاع عنهم، وتناسى التعليمات التي زودته بها الخارجية الروسية بشأن إصلاح رجال الدين اليونانيين، وركز جهوده على العرب الأرثوذكس، وتلقى شكاواهم، ووعد صراحة بإحالتها إلى سان بطرسبرج، كذلك فقد استخدم راتبه الشخصي لتوزيع الهدايا على رجال الدين العرب، وتوفير أيقونات وزخارف لكنائسهم، وإعطاء الأموال لفقرائهم وكان كثيرا ما ينقل شكاواهم وطلباتهم إلى بطريرك القدس كيرلس الثاني[١٧٤]، وقد استغل الصداقة التي ربطته به وطلب منه أن يفسح له وقتا لمناقشته في وضع العرب الأرثوذكس وأحوالهم، وعلى الرغم من إجابة كيرلس الثاني بأنه سيناقشه فيما طلبه "بأذن صاغية وعقل منفتح"، فإنه حقر كثيرا من شأن الأرثوذكس العرب، ووصفه بأنهم برابرة أشرار، يكرهون رجال الدين اليونانيين، ويحاولون دائما تشوية صورتهم، وأنهم غير مؤمنين إيمانا حقيقيا سليما، وحينما ألقى بارفيري باللائمة في ذلك على رجال الدين اليونانيين الذين قصروا في تعليمهم شئون دينهم، ولاسيما وهم يجهلون لغتهم، ولا يحسنون معاملتهم؛ فاتهمه كيرلس بكراهيته لرجال الدين اليونانيين، فرد عليه بارفيري بقوله "إن الله يعلم مدى حبي لك ولكني مستعد للدفاع عن العرب بكل ما أوتيت من قوة"[١٧٥].

وبالفعل أكد بارفيري في تقاريره إلى المجمع المقدس والخارجية الروسية على ضرورة الاهتمام بالعرب الأرثوذكس، وأنه وجد في ذلك وسيلة فعالة لدعم الوجود الروسي في بلاد الشام، وقد وافق القيصر نيقولا الأول على تخصيص جزء من الأموال الروسية المرسلة إلى فلسطين لإنشاء مدرسة ومطبعة لتعليم الأرثوذكس العرب تحت إشراف اليونانيين[١٧٦]، وكان لهذه السياسة انعكاساتها الواضحة بعد حرب القرم عندما تخلت روسيا عن العنصر اليوناني وحاولت العمل من خلال رجال الدين الأرثوذكس العرب، وكان هدف بعثة سيريل نوموف المحوري هو ضرورة الدعم الكلي للأرثوذكس العرب.

يتضح من العرض السابق حرص روسيا على استكشاف الأوضاع في بلاد الشام، وجمع مزيد من المعلومات عن أوضاع الأرثوذكس فيها للاستفادة من ذلك في دعم نفوذها داخل الدولة العثمانية من خلال إرسال بعثات بارفيري أوسبنيسكي، الذي استطاع أن يقدم للساسة والمسئولين الروس معلومات مفصلة نابعة عن معايشة حقيقية لواقع المسيحيين الأرثوذكس في هذه المناطق، وأنه قدم مقترحات قيمة أخذت الحكومة الروسية بمعظمها، فنتج عن ذلك آثارا جلية تمثلت في توافد المبشرين الأرثوذكس الروس إلى فلسطين، وقد وصل عددهم عام ١٨٥٧م إلى ثمانمائة مبشرا، كما تزايد أعداد الحجاج الأرثوذكس الروس بشكل كبير، كذلك فقد أنشئ قسم جديد في وزارة الخارجية الروسية عرف باسم "قسم فلسطين"، وتأسست الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عام ١٨٨٢م وقد ساهم ذلك بدور فعال في دعم الوجود السياسي والديني لروسيا في بلاد الشام.

الملاحق

ملحق رقم (١)

الخرائط [١]

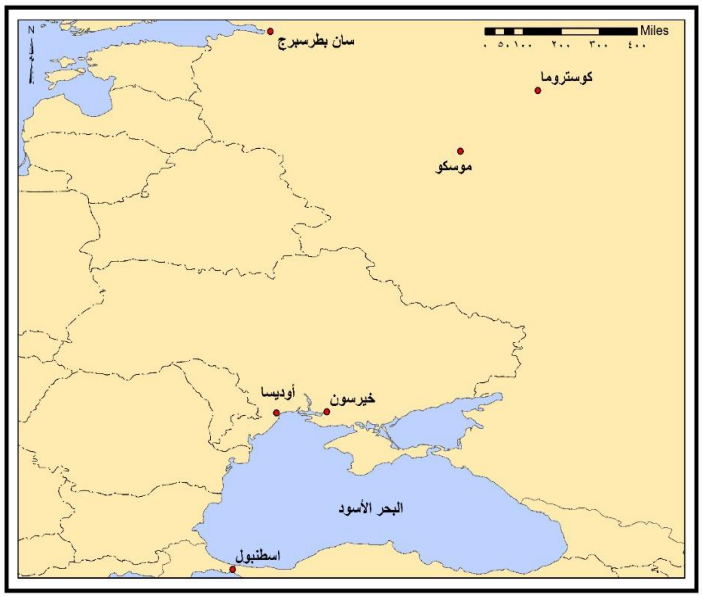

خريطة رقم (١)
توضح المدن التي زارها بارفيري أوسبنيسكي قبل سفره إلى بلاد الشام

[١] الخرائط من عمل الباحثة باستخدام برنامج GIS الجغرافي.

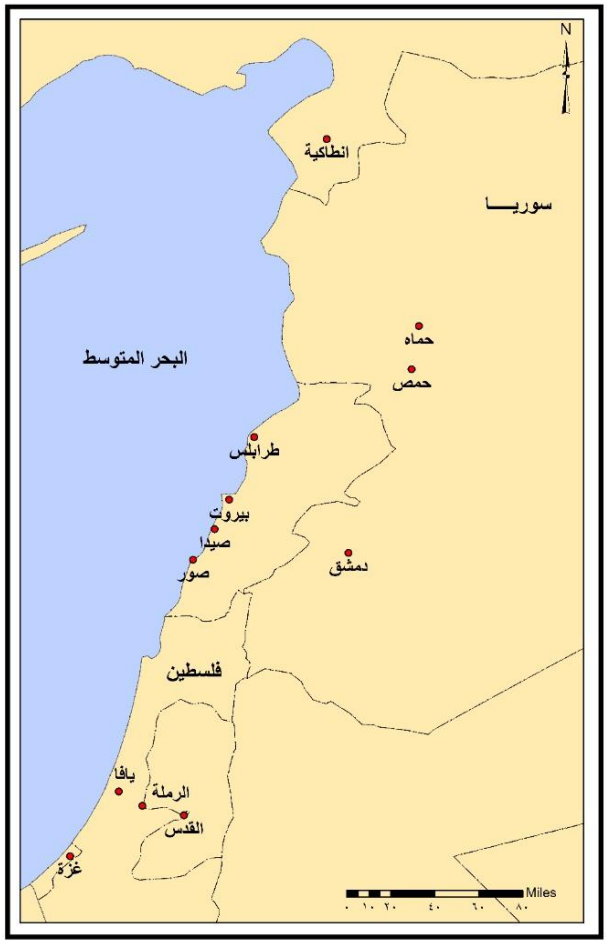

خريطة رقم (٢)
توضح المدن التي زارها بارفيري أوسبنيسكي خلال بعثاته في بلاد الشام (١٨٤٣-١٨٦٠م)

ملحق رقم (٢)

الصور

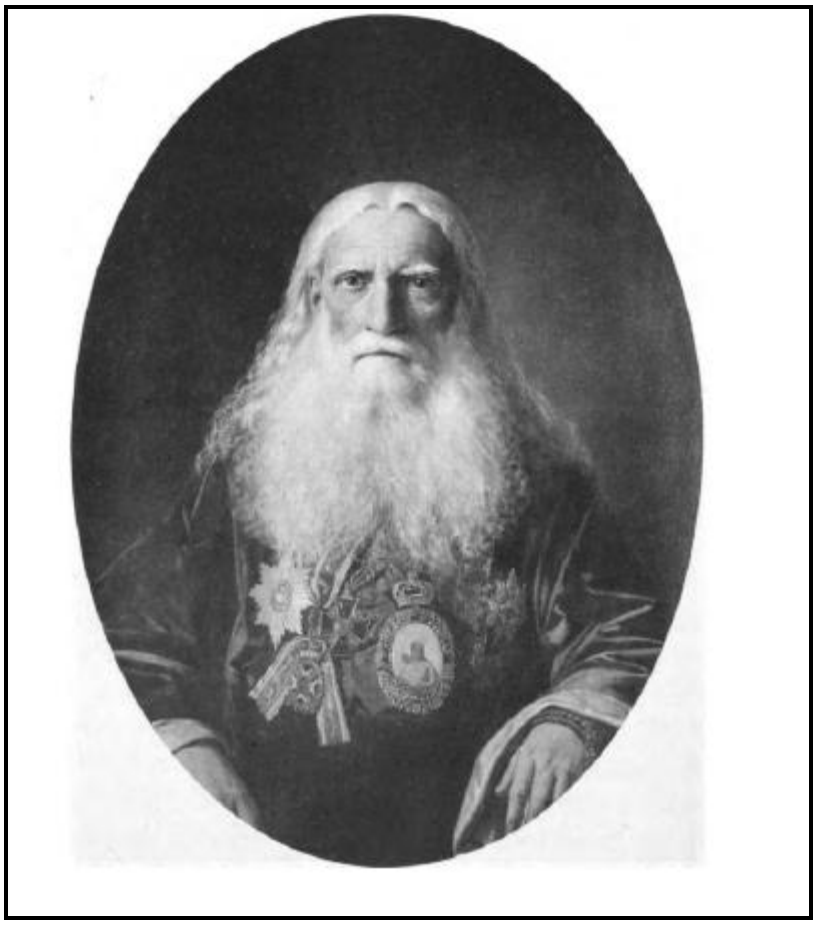

صورة رقم (١) لبارفيري أوسبنيسكي منشورة في مقدمة مذكراته[٢]

[2] Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, С. V.

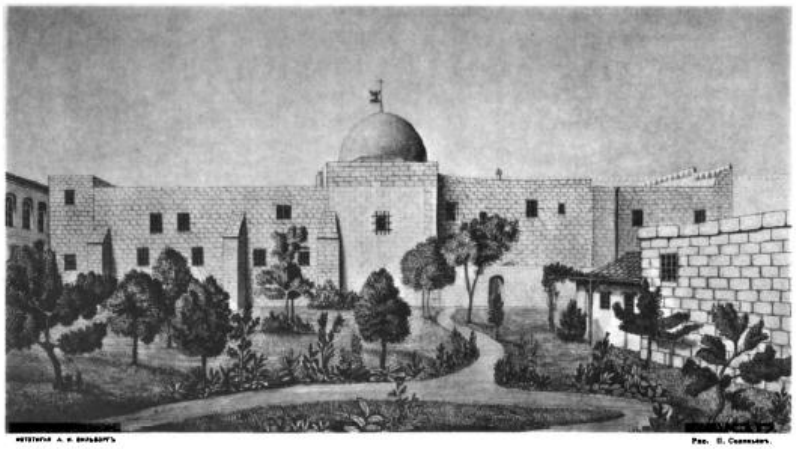

Архангельскій монастырь въ Іерусалимѣ.

صورة رقم (٢) توضح دير رؤساء الملائكة في القدس[٣]

(3)Ibid, Том VII, С. 268.

Домъ архимандрита Порфирія въ Іерусалимѣ.

صورة رقم (٣) بعنوان:
"بيت الأرشمندريت بارفيري في القدس"
المنشورة في الجزء السابع من مذكراته(٤)

(4) Ibid, Том VII, C. 226.

صورة رقم (٤) بعنوان:
"صورة المدرسة البطريركية في دير الصليب (من جهة الشرق)"[٥]

[5] Ibid, Том VII, С. 268.

Восточная сторона храма Воскресенія.

صورة رقم (٥) توضح الجانب الشرقي من كنيسة القيامة كما نشرت في مذكرات بارفيري أوسبنيسكي(٦)

(6)Ibid, Том VII, С. 268.

الهوامش

(١)خيرية قاسمية، "روسيا القيصرية والمشرق العربي"، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العدد التاسع، محرم ١٤٠٣، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٢، ص ص ٤٦-٤٨ .

(٢) محمد حبيب صالح، البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية وفلسطين) ١٨٤٠-١٩١٤، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان (٦٥-٦٦) أيلول- كانون الأول ١٩٩٨، ص ص ١٥٧-١٥٩.

(٣) مشعل مفرح ظاهر الشمري، "حركة التبشير الروسية الأرثوذكسية في القدس"، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد السابع، آيار ٢٠١٢، ص ١٦٦.

(٤) نهاد عبد الباسط، مصر والشام في كتابات الرحالة والقناصل الروس في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١٩، ص ص ٢١٢-٢١٦.

(5)Hopwood, Derek, The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914 Church and Politics in the Near East, Oxford: Clarendon Press, 1969, pp.39-52.

(6) Gerd, Lora and Potin, yane, "Foreign Affairs through Private Papers: Bishop Porfirii Uspenskii and His Jerusalem Archives, 1842–1860" in Ordinary Jerusalem 1840–1940 Opening New Archives, Revisiting a Global City, Vol.1, Leiden: Brill, 2018,pp. 100-117.

(٧) تقع على بعد ثلاثمائة وخمسين كيلومترا إلى الشمال الشرقي من العاصمة الروسية موسكو Moscow عند إلتقاء نهري الفولجا Volga وكوستروما، شيدها مؤسس مدينة موسكو الأمير يوري دولغوروكي Yury Dolgoruky (١٠٩١-١١٥٧) عام ١١٥٢م. انظر: Official website of Kostroma, www.gradkostroma.ru/en/kostroma_today/index.aspx, (19 July 2020).

– وانظر أيضا: ملحق رقم (١)، خريطة رقم (١).

(٨) تقع جنوب غرب أوكرانيا على الساحل الشمالي الغربي للبحر الأسود، عند نقطة تبعد حوالي واحد وثلاثين كيلو متر شمال مصب نهر الدينستر Dniester. انظر:

–https://www.britannica.com/place/Odessa-Ukraine , (28 February 2021).

(9) епископа Порфирия Успенского, Книга бытия моего. Дневники и автобиографические записки, Том I, (Годы 1841, 1842, 1843 и часть 1844-го), С.-Петербургъ: 1894, С.1-2.

(١٠) دبلوماسي روسي عرف عنه اهتمامه بالقضايا السياسية والدينية، ألف كتابا نشر باللغة الفرنسية عام ١٨١٦م بعنوان Considérations sur la doctrine et l'esprit de l'Eglise orthodoxe "اعتبارات حول عقيدة وأسس الكنيسة الأرثوذكسية"، أرسل نسختين منه إلى البطريرك المسكوني في إستانبول سيريل السادس Cyril VI (١٨١٣-١٨١٨)، وبوليكارب في القدس، وحرص على نشر المعلومات الصحيحة عن الكنيسة الأرثوذكسية في أوروبا الغربية من خلال أعماله الأدبية، اهتم بشكل واضح بتعلم اللغات الأجنبية ولاسيما اللغات القديمة، وحينما تزوجت

ابنته ماريا ستوردزا (١٨٢٠-١٨٩٠) من حاكم أوديسا الأمير يفغيني غريغوريفيتش جاجارين Evgeny Grigorievich Gagarin (١٨١١-١٨٨٦) استقر في أوديسا، وشارك فيها في عديد من الأنشطة الخيرية والاجتماعية والثقافية. لمزيد من التفاصيل انظر:

- "Sturdzu", Encyclopedia Britannica, Vol.25, (11th Ed), Cambridge University Press, 1911, p. 1051, www.britannica.com, (20 July 2020).

(١١) ينتسب إلى اليونانيين الفناريين، ولد في إستانبول عام ١٧٦٨م، كان على دراية واسعة بعدد من اللغات الأوروبية واللغة العربية بالإضافة إلى إجادته للغة العثمانية، تولى حكم إمارة مولدافيا العثمانية خلال الفترة من (٧ من مارس إلى ٢٤ من يوليو ١٨٠٧)، وبعد قيام الثورة اليونانية عام ١٨٢١م خشى من رد فعل العثمانيين ضد الفناريين، فهاجر وعائلته إلى أوديسا، ثم انتقل إلى موسكو وقد أحسن القيصر ألكسندر الأول / Alexander (١٨٠١-١٨٢٥) استقباله، وفي الفترة من (١٨٤٠-١٨٤٢) نشر قاموسا من ثلاثة مجلدات بعنوان "قاموس فرنسي- عربي، فارسي عثماني، غني بالأمثلة العثمانية مع البدائل والعديد من كلمات العلوم والفنون"-Dictionnaire français arabe, persan et turc, enrichi d'exemples en langue turque, avec des variantes, et beaucoup de mots d'arts et de sciences. انظر:

- Mézière, Ernest, "Le prince Handjeri", Nouvelle biographie universelle depuis les temps les plus reculés jusqu'a nos jours, avec les renseignements bibliographiques et l'indication des sources a consulter, Vol. 23, Paris: Firmin Didot frères, 1852, p.290.

(12) Порфирия Успенского, Книга бытия моего. Том I, С. I-VI.

(13) Ibid, Том I, С. I-VI.

(14) Ibid, Том I, С. VII-VIII.

(١٥) ألغى بطرس الأكبر Peter the Great (١٦٨٩-١٧٢٥) البطريركية عام ١٧٢١م، وأحل محلها المجمع المقدس الذي سيطر عليه سيطره تامة، وكان مسئولا عن تعيين جميع أساقفته. انظر:

Шавельский Г. И. Русская церковь пред революцией, М.: 2005, С. 486.

(16)"Указ Св. Синода архим. Порфирию 16 Ноября 1842 года", Безобразовъ, П.В., Материалы для биографии епископа Порфирия Успенского, Том 1, С.-Петербург: тип. В.Ф.Киршбаума, 1910, С.11-12.

(17) Kane, Eileen M., Pilgrims, Holy Places, and the Multi-Confessional Empire: Russian Policy Toward the Ottoman Empire Under Tsar Nicholas I, 1825-1855, PH.D, Princeton University, 2005, p.109.

(١٨) محمد حبيب صالح، "الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر"، مجلة دراسات تاريخية، العدد السابع والستين، دمشق، ١٩٩٩، ص ٢٢٣.

(١٩) يرجع تأسيسها إلى عام ١٧٦٣م، وكانت لها مهمات عسكرية وعلمية: مثل دراسة مسرح العمليات العسكرية، وإعداد طرق تحرك القوات، بالإضافة إلى إعداد الخرائط والخطط العسكرية. انظر:

- Postnikov, Aleksey V., "From Charting to Mapping: Russian Military Mapping of Corfu in the Early Nineteenth Century", Imago Mundi, Vol. 53, (2001), p.83.

(٢٠) مسألة الحج الروسي إلى الأماكن المقدسة قبل القرن التاسع عشر كانت مناط خلاف بين المؤرخين، فيرى الفريق الأول وفي مقدمتهم إيجور سموليتش Igor Smolitsch (١٨٩٨-١٩٧٠) أن الحج إلى القدس كان ممارسة شائعة للمسيحيين الأرثوذكس الروس رغم المخاطر التي انطوت عليها، كما صور دريك هوبوود الفلاحين الروس الأرثوذكس وقد قادهم حماسهم وإيمانهم الشديد للقيام بالحج إلى القدس قاطعين الرحلة في كثير من الأحيان سيرا على الأقدام، أما ستافرو Stavrou (١٩٣٤) فقد وصف الحج الأرثوذكسي الروسي إلى القدس كتقليد تاريخي، وأن الأرثوذكس الروس كانوا يتوافدون إلى الأماكن المقدسة كل عام من أجل الحج. انظر:

-Smolitsch, "Zur Geshchichte der Beziehungen zwischen der Russischen Kirche und dem Orthodoxen Osten" Ostkirchliche Studien 5, 1 (March 1956), p. 42-43 cited in Kane, Eileen M., op.cit., p. 31; Stavrou, T.G., "Russian Interest in the Levant 1843-1848, Porfirri Uspenskii and Establishment of the First Russian Ecclesiastical Mission in Jerusalem", Middle East Journal, Vol.17, No. 1/2, (Winter- Spring, 1963), p.94.; Hopwood, Derek, op.cit.,p.10.

ينفي **فريق ثان** من المؤرخين الرأي السابق، فقد أشارت إيلين كين Eileen Kane إلى نقل هوبوود وستافرو رأي سموليتش بشأن مسألة الحج الروسي للأراضي المقدسة، أنه بالرجوع إلى وثائق أرشيف السفارة الروسية في إستانبول تبين أن الحج الأرثوذكسي إلى القدس لم يكن مزدهرا إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأن عددا قليلا جدا من المسيحيين الأرثوذكس هم الذين قاموا بزيارتها قبل تلك الفترة ، وهو ما أكدته المستشرقة الروسية كاليريا بيلوفا Caleria Belova، كما يذكر محمد حبيب صالح أن القدس كانت بالنسبة للروس قبل القرن التاسع عشر بلادا بعيدة، والطرق إليها شاقة فاقتصر الحج إليها على بعض المؤمنين الميسورين. انظر:

- كاليريا بيلوفا، "العلاقات الروحية بين الكنيستين الشقيقتين الأرثوذكسيتين الأنطاكية والروسية في القرن العشرين"، ندوة روسيا وأرثوذكس الشرق، جامعة البلمند، ١٩٩٨، ص ١٤٠؛ محمد حبيب صالح، البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام، ص ١٥٥؛ Kane, Eileen M., op.cit., p. 107-108.

ويمكن ترجيح الرأي الثاني استنادا لما كتبه بوريس منصوروف أحد أبرز المسئولين الروس المهتمين بشئون فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الذي أرسلته وزارة الخارجية الروسية إلى القدس عام ١٨٥٧م لجمع معلومات عن الحجاج الأرثوذكس في فلسطين، وقد أشار منصوروف في كتابه الذي نشره في العام التالي تحت "عنوان الحجاج الأرثوذكس في فلسطين" إلى أن الحجاج الأرثوذكس الروس يمثلون نسبة ضئيلة جدا من إجمالي الحجاج الأرثوذكس عامة في فلسطين؛ وأرجع ذلك إلى الصعوبات التي تواجه الروس في السفر إلى القدس، وعدم مبالاة المسئولين الروس في إستانبول – التي تعد بمثابة المحطة الأولى في رحلتهم البحرية إلى القدس- بتقديم العون والمساعدة لهم. انظر:

– Мансу́ров, Б., Православные поклонники в Палестине, 1858, СС. 1-4.

(٢١) دار الوثائق القومية بالقاهرة، وثائق الشام، محفظة ٢٩، ملف ١٦٣، وثيقة بتاريخ سلخ شوال ١٢٥٠هـ/ ٢٧ فبراير ١٨٣٥م

(٢٢) المصدر نفسه.
(٢٣) بادرت بريطانيا بتأسيس أول قنصلية لها في القدس في عام ١٨٣٨م، تلتها فرنسا وبروسيا وسردينيا عام ١٨٤٣م، ثم وصل القنصل الأمريكي في عام ١٨٤٤م، والنمساوي في ١٨٤٩م، وقد أبقت روسيا على نائب للقنصل في القدس يخضع لإشراف القنصل الروسي في بيروت. انظر:

– Stavrou, op.cit., p.92.

(٢٤) خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص ٤٦ .
(٢٥) قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة: طارق معصراني، موسكو: دار التقدم، ١٩٨٩، ص ٣٢١.

(26) Stavrou, op.cit., p.91.

(27) Kane, Eileen M., op.cit., pp.2-4.

(٢٨) استخدم هذا المصطلح في الكنائس الشرقية منذ القرن الرابع الميلادي، باستثناء الكنيسة السريانية، ويعني رئيس دير أو مجموعة أديرة. انظر: "أرشمندريت"، قاموس المصطلحات الكنسية،

https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual-Taks-Al-Kanisa/Dictionary-of-Coptic-Ritual-Terms/ (28 February 2021).

(29)"о предположении назначить для пребывания в Иерусалиме православного архимандрита из Россиян", Безобразовъ, Том 1, С.3-4.

(٣٠)سياسي روسي من أصل ألماني، ولد في لشبونة في ١٤ من ديسمبر ١٧٨٠م، واستطاع أن يدير دفة السياسة الروسية لمدة تقرب من الأربعين عاما، وكان دائما ما يستخدم مواهبه السياسية في حل المشكلات التي تواجه سياسته بالطرق السلمية، كانت لديه فكرة أساسية تتمثل في أن السلام في أوروبا يعتمد في المقام الأول على العلاقات الودية بين بريطانيا وروسيا، ابتعد عن الحياة السياسية منذ عام ١٨٥٦م، وتوفي في ٢٣ من مارس ١٨٦٢م. انظر:

- Ingle, Harold N., "Nesselrode and the Russian Rapprochement with Britain, 1836-1844", Review by: Kazemzadeh, Firuz, Slavic Review, Vol. 36, No. 1 (Mar., 1977), pp. 114-115

(31) Stavrou, op.cit., p. 90.

(٣٢) حاولت الحكومة الروسية في عهد نيقولا الأول توطيد صلاتها بالأرثوذكس في كافة أنحاء الدولة العثمانية، واستغلالهم لتحقيق أطماعها السياسية، حتى في مصر رأت في هزيمة محمد علي العسكرية والسياسية فرصة لدعم نفوذها من خلال رعاية الأرثوذكس، فقد حاولت توطيد صلتها ببطريرك الأرثوذكس "ارتيميوس" Arteimus مما أثار حفيظة محمد علي، وأرسل إلى الباب العالي عام ١٨٤٥م يطلب عزله وتعيين وكيله "ايروتيوس" Aarotios مكانه، وقد واصل محمد علي جهوده لدى الباب العالي حتى حصل على فرمان بتعيين "ايروتيوس" بطريركا للأرثوذكس في مصر في محاولة منه للوقوف في وجه النفوذ الروسي. انظر:

– دار الوثائق القومية بالقاهرة، ملخصات دفاتر عابدين، دفتر ٨، م ٧١١، صفحة بدون رقم بتاريخ ٢٥ ذي القعدة ١٢٦٢ه/ ١٤ نوفمبر ١٨٤٦م، من الجناب العالي إلى القبوكتخدا؛ المصدر نفسه م ٧٣٢، صفحة بدون رقم بتاريخ ١١جماد أول ١٢٦٣ه/ ٢٧ إبريل ١٨٤٧م، من الجناب العالي إلى القبوكتخدا.

(33)"Высочайше утверждённая 13 июня 1842 г. записка Вице-Канцлера Графа Нессельроде об отправлении русского духовного лица в Иерусалим", Безобразовъ, Том 1, С.5-6.

(34) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, С. VIII.

(35) Kane, Eileen M., op.cit., p. 34.

(٣٦) يهتم هذا القسم بكل ما يتعلق بشئون الدولة العثمانية، بما في ذلك الولايات العثمانية التي تقع في أوروبا. انظر:

– Hopwood, Derek, op.cit, p. 36.

(37) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, С. 120.

(38) Stavrou, op.cit., p. 98.

(39) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, СС. 121-125.

(40) Ibid, Том I, С. 124.

(41) Ibid, Том I, С. 124-125.

(٤٢) عملة روسية ورد ذكرها في المصادر الروسية منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وكان يطلق عليها أحيانا اسم جريفنا Grivna وهي تعادل ٢٠٤ جرام أو ٦.٦ أوقية من الفضة. انظر:

- рубль, "Словарь Фасмера", https://starling.rinet.ru (28 February 2021).

(43)"Указ Св. Синода архим. Порфирию 16 Ноября 1842 года", Безобразовъ, Том1, С. 11-12.

(44) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, С. 126.

(45) Ibid ,Том I, С. 128.

(46) Ibid, Том I, С. 126.

(47) Hopwood, Derek, op.cit., p. 36.

(48) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, С. 128.

(49) "Указ Св. Синода архимандриту Порфирию 18 Мая 1843 года", Безобразовъ, Том 1, С. 14.

(50) Hopwood, Derek, op.cit., p. 36.

(٥١) تشير لفظة المسكوني تاريخيا إلى المسكون وهو مصطلح صكه الإغريق ليدلوا على العالم المتحضر، أي الإمبراطورية الرومانية، ولقب بطريرك القسطنطينية بالبطريرك المسكوني منذ القرن السادس الميلادي، ويعرف بأنه الأول من المتكافئين، أي هو الأشرَف بين كل أساقفة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية. لمزيد من التفاصيل انظر:

-"Eastern Orthodoxy", www.britannica.com, (20 July 2020).

(52) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, С. 167.

(53) Hopwood, Derek, op.cit., p. 49.

(54) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, С. 166-167.

(55) Ibid, Том I, С. 166-167.

(٥٦) في القرن الرابع عشر الميلادي نقل مقر بطريركية أنطاكية إلى دمشق. لمزيد من التفاصيل انظر:

- Baumann, Martin and Melton, Gordon J., Religions of the World: A Comprehensive Encyclopedia of Beliefs and Practices, Second Edition, California: Santa Barbara, 2010, p.1253.

(57) Gerd, Lora and Potin, yane, op.cit., p. 107.

(58) Kane, Eileen M., op.cit., p. 89-90.

(59) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том III, (Годы 1846, 1847, 1848, 1849 и часть 1850), 1896, С. 105.

(60) Kane, Eileen M., op.cit., p. 90- 91.

(61)"Записка о положеніи Іерусалимской церкви отъ 12 Октября 1844 г., представленная 28 Октября тогоже года въ Константинополѣ В. П. Титову", Безобразовъ, Том I, С.70.

(62) Kane, Eileen M., op.cit., p. 90- 91.

(63) Gerd, Lora and Potin, yane, op.cit., p.107.

(٦٤) انظر: ملحق رقم (١)، خريطة رقم (٢).

(65) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, СС. 355-357.

(66) Ibid, Том II, (Годы 1844 и 1845), 1895, С. 265.

(67) Hopwood, Derek, op.cit., p. 36.

(68) Kane, Eileen M., op.cit., p. 95.

(69) Hopwood, Derek, op.cit., p. 35.

(70) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том I, С. 355.

(71) Ibid, Том I, С. 373.

(72) Kane, Eileen M., op.cit., p. 96.

(73) Stavrou, op.cit., p. 98.

(٧٤) تشكل الإمارتان دولة رومانيا Romania الحالية.

(٧٥) جماعات من المسيحيين الشرقيين الذين يعترفون بسلطة البابوية في روما حيث قبلوا العقائد الكاثوليكية، ولكنهم احتفظوا بالطقوس الدينية البيزنطية الشرقية، ولهذا يذكر بعض المؤرخين أنهم يقفون بشكل "مربك" بين الكاثوليك والأرثوذكس. انظر:

- Encyclopedia of Ukraine, Vol.5, 1993, www.encyclopediaofukraine.com (17 August 2020).

(76) Kane, Eileen M., op.cit., p. 96.

(77) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том II, С.371-372.

(٧٨) فصل أوسبنيسكي في مذكراته الوسائل الذي اتبعها البطريرك المسكوني لمنع تنفيذ قرار انتخاب بطريرك القدس من قبل جماعة أخوة القبر المقدس. لمزيد من التفاصيل انظر:
- Ibid,Том II, C.373-374.

(79) Ibid, Том II, C.375.

(80) "Записка о положеніи Іерусалимской церкви отъ 12 Октября 1844 г., представленная 28 Октября тогоже года въ Константинополѣ В. П. Титову", Безобразовъ, Том I, C.85.

(81) Kane, Eileen M., op.cit., p. 97.

(82) Gerd, Lora and Potin, yane, op.cit., p. 108.

(83)"Записка о палестинскихъ Св. мѣстахъ отъ 18 Октября 1844 г., представленная 28 Октября того-же года въ Константинополѣ Вл. П. Титову", Безобразовъ, Том I, CC. 96- 128.

(84) "Записка о положеніи Іерусалимской церкви отъ 12 Октября 1844 г., представленная 28 Октября тогоже года въ Константинополѣ В. П. Титову", Там же , Том I, CC.52-68.

(85) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том II, C. 273.

(86) "Записка о положеніи Іерусалимской церкви отъ 12 Октября 1844 г., представленная 28 Октября тогоже года въ Константинополѣ В. П. Титову", Безобразовъ, Том I, C.68 -69.

(87) Ibid, Том I,C.73.

(88) Ibid, Том I, CC.85-92.

(89) Ibid, Том I, CC. 92- 94.

(90) "Записка отъ 6 Января 1845 г, поданная въ Константинополѣ В. П. Титову", Там же, Том I, C. 158.

(91) Ibid, Том I, C. 146-160.

(92) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том III, C. 103.

(93) Hopwood, Derek, op.cit., p. 40.

(94) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том III, C. 64, C.106.

(95) Ibid, Том III, C. 105.

(96) Hopwood, Derek, op.cit., p. 41.

(97) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том III, C. 105.

تأسس وسام القديسة آن في ١٤ من فبراير ١٧٣٥م من قبل الدوق كارل فريدريش Karl Friedrich (١٧٠٢–١٧٣٩) دوق هولشتاين جوتورب Holstein-Gottorp وهو ألماني المولد تزوج من ابنه بطرس الأول آن عام ١٧٢٥م، ولكن هذا الزواج لم يدم طويلا حيث توفيت عام ١٧٢٨م، فقرر زوجها إحياء ذكراها من خلال إصدار وسام يحمل صورتها، وقد قرر الإمبراطور بول الأول Paul I (١٧٩٦–١٨٠١)

في عام ١٧٩٧م منحه للمتميزين من رجال الدين، والعسكريين، والمدنيين، والمسئولين في المحاكم وكذلك الأجانب. لمزيد من التفاصيل انظر:

- Полное собрание законов Российской империи. Собрание первое, Т. XXIV, С 6 ноября 1796 по 1798. № 17908, СПб.: Типография II отделения Собственной Его Императорского Величества канцелярии, 1830, СС. 569- 587.

(98)"Записка объ отправленіи духовныхъ лицъ въ Іерусалимъ, представленная 6 іюня 1847 г. директору канцеляріи оберъ-прокурора св. синода Сербиновичу", Безобразовъ, Том I, СС.261-267.

(٩٩) أشاد بارفيري بجهود صولافيف وكريلوف، وفي رسالة منه إلى تيتوف بتاريخ ٣١ من أكتوبر ١٨٥١م شهد بخدمتهم وعملهم الدءوب منذ وصولهم إلى القدس، وأنهم حرصوا على رفع مكانة روسيا، وأحسنوا في اتصالهم بالسكان المحليين والأجانب. انظر:

– "Записка, представленная 31 октября 1851 года посланнику В. П. Титову", Там же, Том I, С.355.

(100) Gerd, Lora and Potin, yane, op.cit., p. 109.

(101) Kane, Eileen M., op.cit., p. 98.

(102) Hopwood, Derek, op.cit., p. 36.

(103) Stavrou, op.cit., p. 94.

(104) "Записка о церкви Палестинской, представленная посланнику В. П. Титову 19 января 1848 г. для препровожденія въ св. Синодъ", Безобразовъ, Том I, С.282-283.

لمزيد من التفاصيل حول جهود وخطط ألكسندر جوبات لنشر البروتستانتية التي أوردها أوسبنيسكي في تقريره إلى تيتوف انظر :

– Ibid, CC.281-287.

(105) Hopwood, Derek, op.cit., p. 36.

(106) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том III, С. 220-221.

(١٠٧) انظر : ملحق رقم (٢)، صورة (٢).

(108) Ibid, Том III, С. 212-213.

(109) Kane, Eileen M., op.cit., p. 99-100.

(١١٠) شماس مفرد والجمع شمامسة وهم خدام المذبح، الذين يقومون بالصلاة مع الأب الكاهن، ويساعدونه في إتمام طقوس الصلوات، وفي أداء الخدمات الدينية، انظر: "دياكون/ الشماس الإنجيلي"، قاموس المصطلحات الكنسية، https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual-Taks-Al-Kanisa/Dictionary-of-Coptic-Ritual-Terms/ (28 February 2021).

(111) "Записка о постройкѣ дома для Іерусалимской духовной миссіи, представленная 16 апрѣля 1852 года повѣренному въ дѣлахъ А. П. Озерову", Безобразовъ, Том. I. СС.356-359.

(112) "Въ Хозяйственное управленіе при Св. Синодѣ 8 октября 1852 года", Там же , Том I, С.360-361.

(113) Gerd, Lora and Potin, yane, op.cit., p. 115.

(114) Hopwood, Derek, op.cit., p. 44.

-انظر: ملحق رقم (٢)، صورة رقم (٣).

(115) "Записка, представленная 31 октября 1851 года посланнику В. П. Титову", Безобразовъ, Том I, С.335-336.

(116) Ibid, Том I, С.331.

(117) Gerd, Lora and Potin, yane, op.cit., p. 112.

(118) "Записка, представленная 31 октября 1851 года посланнику В. П. Титову х", Безобразовъ, Том I, С.353-355.

(119) "Записка, представленная 15 ноября 1849 года въ Константинополѣ. В. П. Титову", Там же, Том I, С.331.

(120) Ibid, Том I, С.363.

(121) Ibid, Том I, С.363.

-انظر: ملحق رقم (٢)، صورة رقم (٤).

(122) Ibid, Том I, СС.363-365.

(123) Hopwood, Derek, op.cit., p. 43-44.

(124) "Записка, представленная 15 ноября 1852 года повѣренному въ дѣлахъ А. П. Озерову", Безобразовъ, Том I, С.363.

(125) Ibid,, Том I, С.367.

(126) "Прошеніе, отправленное 20 апрѣля 1853 года въ Императорскую миссію въ Константинополѣ", Там же, Том I, С.370.

(127) Hopwood, Derek, op.cit., p. 44.

(١٢٨) ملخصات دفاتر عابدين، دفتر١٥، م ١٦٥، صفحة بدون رقم بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٢٧٠هـ/ ١٨ ديسمبر ١٨٥٣م، من الجناب العالي إلى الباب العالي.

(129) "Прошеніе, отправленное 20 апрѣля 1853 года въ Императорскую миссію въ Константинополѣ", Безобразовъ, Том I, С.376-377. .

(130)"Прошеніе, отправленное 20 апрѣля 1853 года въ Императорскую миссію въ Константинополѣ", Безобразовъ, Том I, С.383.

(١٣١) ملخصات دفاتر عابدين، دفتر١٥، م ١٦٤، صفحة بدون رقم بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٢٧٠هـ/ ١٨ ديسمبر ١٨٥٣م، من الجناب العالي إلى الباب العالي.

(132) Hopwood, Derek, op.cit., p. 43.

(١٣٣) وُلد غورتشاكوف في بلدة هابسالو Haapsalu بإستونيا، وتلقى تعليمه في فناء تسارسكوي سيلوTsarskoye Selo Lyceum، وتعلم التحدث والكتابة باللغة الفرنسية، ثم التحق بالعمل في وزارة الخارجية تحت إدارة الكونت نسلرود، حيث شغل منصب سفير روسيا في النمسا، ونظرا لمواقفه الدبلوماسية الحكيمة عينه ألكسندر الثاني عام ١٨٥٦ وزيرا للخارجية.انظر:

"Prince Gorchakov, Alexander Mikhailovich", Encyclopedia Britannica, Vol.12, (11th Ed), Cambridge University Press, 1911, p. 247, www.britannica.com.

(134) Hopwood, Derek, op.cit., p. 48-49.

(135) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том VII, (Оъ 2 Октября 1854 до 26 Сентября 1861 г.), С. 1.

(136) Ibid, Том VII, C. 2.

(137) Ibid, Том VII, C. 17.

(138) Hopwood, Derek, op.cit., p. 49.

(139) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том VII, C. 70.

(140) Ibid, Том VII, C. 74.

(١٤١) ولد في ٢٥ من ديسمبر ١٨٢٣م في مدينة كالوغا Kaluga، تخرج من مدرسة كالوغا اللاهوتية، ثم التحق في عام ١٨٤٣م بأكاديمية سانت بطرسبرغ اللاهوتية، حصل في ٢٢ من مارس ١٨٤٩م على درجة الماجستير في اللاهوت، ثم على الدكتوراه في عام ١٨٥٥م في أطروحته التي تحمل عنوان "اللاهوت الرعوي"، ثم عمل أستاذا في أكاديمية سان بطرسبرج اللاهوتية، وفي عام ١٨٥٧م، عين رئيسا للبعثة الروحية الروسية في القدس، وفي ٢٢ من يونيو ١٨٦٣م، انتهى عمله في القدس، وتولى رئاسة أحد الأديرة في قازان، وفي ١٠ من فبراير ١٨٦٦م توفي ودفن فيها. انظر:

-Здравомыслов К. Я., "Кирилл Наумов", Русский биографический словарь, Том 8, 1897, С.660.

(142) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том VII, C. 74.

(143) Hopwood, Derek, op.cit., p. 49.

(144) Ibid, pp. 50-52.

(١٤٥) يذكر محمد حبيب صالح أنه بعد انتهاء حرب القرم ١٨٥٦م عادت البعثة الروحية الروسية إلى بيت المقدس مرة أخرى برئاسة بارفيري أوسبنيسكى، وأن البعثة لاقت صعوبات كبيرة في إعادة ممارسة نشاطها في فلسطين بسبب الدعاية الكاثوليكية والبروتستانتية، ولكن الراجح أن بارفيري زار القدس للمرة الأخيرة عام ١٨٦٠م كزائر ولم يتول أية مهمة رسمية. انظر:

- محمد حبيب صالح، البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام، ص ١٥٨-١٥٩.

(146) Gerd, Lora and Potin, yane, op.cit., p. 109.

(147) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том VII, С. 225-226.
(148) Ibid, Том VII, С. 226-227.
(149) Ibid, Том VII, С. 243.
(150) Ibid, Том VII, С. 244-245.
(151) Gerd, Lora and Potin, yane, op.cit., p. 115.
(152) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том VII, С. 274.

(١٥٣)هم مجموعة من المسيحيين المونوفيزيين الذين يؤمنون بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح هي الطبيعة الإلهية، وهم ذوي جذور قديمة في سوريا وبلاد ما بين النهرين وكردستان. انظر:

- Kane, Eileen M., op.cit., p. 88.

(154) Ibid, p. 92.
(155) "Историческая замѣтка объ араво-католикахъ, или уніатахъ, въ Сиріи и Палестинѣ", Безобразовъ, Том I, С.44.
(156) Kane, Eileen M., op.cit., p. 92.

(١٥٧)طائفة من الشيعة الإثنى عشرية، ظهرت في القرن الثالث الهجري، على يد أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري (ت ٢٢٧٠هـ)، ويطلق عليهم أيضا اسم العلويين، والخصيبية. لمزيد من التفاصيل انظر:

- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف ومراجعة مانع بن حماد الجهني، المجلد الأول، الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع،١٤٢٠هـ، ص ص٣٩١-٣٩٦.

(158) Kane, Eileen M., op.cit., p. 92-93.
(159) Ibid, p.93-94.

(١٦٠) قسطنطين بازيلي، المصدر السابق، ص ٣٤٣.

(161) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том III, С. 64, С.106.

(١٦٢)كان من المفترض أن يذهب بارفيري برفقه هيرمونك جوزيف Hermon Joseph أحد أساقفة سيناء إلى الحبشة، ولكن رئيس الأساقفة لم يبارك الأخير في رحلته، فخشى بارفيري القيام بهذه الرحلة الطويلة والتي تنطوي على مخاطر متعددة بمفرده. انظر:

- Никитин, Архимандрит Августин, "ЕПИСКОП ПОРФИРИЙ (УСПЕНСКИЙ) И ЭФИОПСКАЯ ЦЕРКОВЬ", История Поместных Церквей, https://cyberleninka.ru/article/n/episkop-porfiriy-uspenskiy-i-efiopskaya-tserkov/viewer, (2 July 2020).

(163) Kane, Eileen M., op.cit., p.100-101.
(164) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том IV, (Оь 18 Марта 1850 по 3 Апрѣля 1853 г.), 1896, С. 123.
(165) Kane, Eileen M., op.cit., p.101.
(166) Ibid, p.101.

(١٦٧)في نوفمبر ١٨٤١م طلب أحد رعايا الدولة العثمانية بالقدس يدعى أياكوف Iakov من السلطات الكنسية الأرثوذكسية في تفليس الحماية الروسية لجماعته؛ فقد دعا نفسه مطران القدس للكنيسة اليعقوبية الآشورية، ولم يسمع نسلرود ولا بروتاسوف باليعقوبية؛ ولهذا اتصلا بالسفير الروسي في إستانبول تيتوف للحصول على معلومات عن تلك الطائفة فجاءه تقرير من إستانبول بأن اليعاقبة من المسيحيين المونوفيزيين الذين يؤمنون بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح هي الطبيعة الإلهية، وأنهم ذوي جذور قديمة في سوريا وبلاد ما بين النهرين وكردستان، وفي أواخر القرن الثامن عشر أدخلت الحكومة العثمانية إصلاحات إدارية أدخلت اليعاقبة تحت سلطة البطريرك الأرمني في إستانبول فتحول بعضهم للكاثوليكية، فأرسل التقرير ذاته إلى بروتاسوف ليحدد إلى أي مدى يمكن لروسيا أن تدافع عن اليعاقبة أمام الحكومة العثمانية، فجاء رد المجمع المقدس بالتغاضي عن هرطقة اليعاقبة، وعرض حماية روسيا لهم؛ لأنه إذا أهملهم الروس فسيتعرضون للتبشير الكاثوليكي. انظر:

– Ibid, p. 88.

(168) Ibid, p.102.

(١٦٩) انظر ملحق رقم (٢)، صورة رقم (٥).

(170) "Записка отъ 6 Января 1845 г., поданная въ Константинополѣ В. П. Титову", Безобразовъ, Том I, С. 155.

(171) Kane, Eileen M., op.cit., pp.72-74.

(172) Ibid, p.74.

(173) Gerd, Lora and Potin, yane, op.cit., p. 101.

(174) Hopwood, Derek, op.cit., p. 39, p. 43.

(175) Порфирия Успенского, Книга бытия моего, Том II, СС. 265-270.

(176) Stavrou, op.cit., p. 97.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

أولا: الوثائق غير المنشورة

وثائق دار الوثائق القومية بالقاهرة وتشمل:

- وثائق الشام: محفظة رقم ٢٩
- ملخصات دفاتر عابدين: دفتر ٨، ١٥.

ثانيا: المصادر العربية

١. قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة: طارق معصراني، موسكو: دار التقدم، ١٩٨٩.

ثالثا: الدوريات العربية

١. خيرية قاسمية، "روسيا القيصرية والمشرق العربي"، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العدد التاسع، محرم ١٤٠٣، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٢.

٢. كاليريا بيلوفا، "العلاقات الروحية بين الكنيستين الشقيقتين الأرثوذكسيتين الأنطاكية والروسية في القرن العشرين"، ندوة روسيا وأرثوذكس الشرق، جامعة البلمند، ١٩٩٨.

٣. محمد حبيب صالح، "البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية وفلسطين) ١٨٤٠-١٩١٤"، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان (٦٥-٦٦) أيلول- كانون الأول ١٩٩٨.

٤. ــــــــــــــــــــــــ، "الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر"، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العدد السابع والستين، دمشق، ١٩٩٩.

رابعا: الرسائل العلمية العربية

١. نهاد عبد الباسط محمد، مصر والشام في كتابات الرحالة والقناصل الروس في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١٩.

خامسا: الموسوعات العربية

١. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف ومراجعة مانع بن حماد الجهني، المجلد الأول، الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ.

المصادر والمراجع الأجنبية

أولا: المصادر الروسية

Безобразовъ, П.В., Материалы для биографии епископа Порфирия Успенского, С.-Петербург: тип. В.Ф.Киршбаума, 1910.

епископа Порфирия Успебнского, Книга бытия моего. Дневники и автобиографические записки, Семь томов, С.-Петербургъ: (1894-1901).

Мансу́ров, Б., Православные поклонники в Палестине, 1858.

Полное собрание законов Российской империи. Собрание первое, Т. XXIV, С 6 ноября 1796 по 1798. № 17908, СПб.: Типография II отделения Собственной Его Императорского Величества канцелярии, 1830.

ثانيا: المراجع الأجنبية

1. Baumann, Martin and Melton, Gordon J., Religions of the World: A Comprehensive Encyclopedia of Beliefs and Practices, Second Edition, California: Santa Barbara, 2010.

2. Hopwood, Derek, The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914 Church and Politics in the Near East, Oxford: Clarendon Press, 1969.
3. Шавельский Г. И. Русская церковь пред революцией, М.: 2005.

ثالثا: الدوريات الأجنبية

Gerd, Lora and Potin, yane, "Foreign Affairs through Private Papers: Bishop Porfirii Uspenskii and His Jerusalem Archives, 1842–1860" in Ordinary Jerusalem 1840–1940 Opening New Archives, Revisiting a Global City, Vol.1, Leiden: Brill, 2018.
Ingle, Harold N., "Nesselrode and the Russian Rapprochement with Britain, 1836-1844", Review by: Kazemzadeh, Firuz, Slavic Review, Vol. 36, No. 1 (Mar., 1977).
Mézière, Ernest, "Le prince Handjeri", Nouvelle biographie universelle depuis les temps les plus reculés jusqu'a nos jours, avec les renseignements bibliographiques et l'indication des sources a consulter, Vol. 23, Paris: Firmin Didot frères, 1852.
Postnikov, Aleksey V., "From Charting to Mapping: Russian Military Mapping of Corfu in the Early Nineteenth Century", Imago Mundi, Vol. 53, (2001).
Stavrou, T.G., "Russian Interest in the Levant 1843-1848, Porfirri Uspenskii and Establishment of the First Russian Ecclesiastical Mission in Jerusalem", Middle East Journal, Vol.17, No. 1/2, (Winter- Spring, 1963).

رابعا: الرسائل العلمية الأجنبية

1.Kane, Eileen M., Pilgrims, Holy Places, and the Multi-Confessional Empire: Russian Policy Toward the Ottoman Empire Under Tsar Nicholas I, 1825-1855, PH.D, Princeton University, 2005.

خامسا: القواميس الأجنبية

1. Здравомыслов К. Я., "Кирилл Наумов", Русский биографический словарь, Том 8, 1897.

مواقع شبكة المعلومات الدولية

"Eastern Orthodoxy", www.britannica.com.
"Prince Gorchakov, Alexander Mikhailovich", Encyclopedia Britannica, Vol.12, (11th Ed), Cambridge University Press, 1911, p. 247, www.britannica.com.
"Sturdzu", Encyclopedia Britannica, Vol.25, (11th Ed), Cambridge University Press, 1911, www.britannica.com.
Encyclopedia of Ukraine, Vol.5, 1993, www.encyclopediaofukraine.com.
Official website of Kostroma, www.gradkostroma.ru/en/kostroma_today/index.aspx.

Никитин, Архимандрит Августин, "ЕПИСКОП ПОРФИРИЙ (УСПЕНСКИЙ) И ЭФИОПСКАЯ ЦЕРКОВЬ", История Поместных Церквей, cyberleninka.ru/article/n/episkop-porfiriy-uspenskiy-i-efiopskaya-tserkov/viewer.
рубль, "Словарь Фасмера", https://starling.rinet.ru.
https://www.britannica.com/place/Odessa-Ukraine.